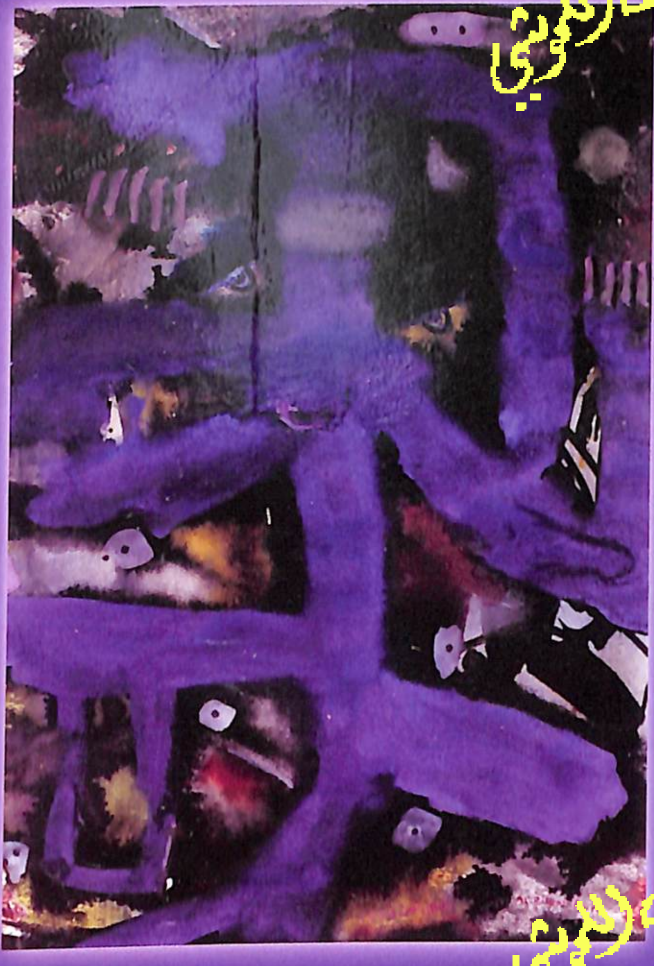
هواجس التوقف



فتحي العبدلي

مجلس الثقافة العام

هواجس التوقع

إصدارات

مجلس الثقافة العام

هـواجـس الـتـوقـع

فتحي العبدلي

الناشر
مجلس الثقافة العام

اسم الكتاب هواجس التوقع
اسم المؤلف فتحي العبدلي
سنة النشر 2008 م
رقم الإيداع 41 / 2008 م (دار الكتب الوطنية)
الترقيم الدولي 978 - 9959 - 38 - 786 - 8

تصميم الغلاف علي العباني
لوحة الغلاف الكيلاني عون
التنفيذ الفني دار قباء الحديثة - القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت
هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161
فرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار
هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388
ص ب 2764 طرابلس
فرع بنغازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني
هاتف 00218612241577 - 00218612241578
بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي
بريد إلكتروني - LCC2_2005@Yahoo.ca

نخال أنفسنا أننا نملك الصفة فندعي الكتابة حالمين بأن ثمة قراء قد يتلقفون منها شيئا فينتعلون لخطوهم منها مفردا وهم السائرون بمسارب الحياة .

مقامـــراً على أحد أولئك ممن يعانون بهذه الهيئة أو تلك، علـــه يجـــد بها سطرا أو فقرة تعنيه فيظن جازما بأنني أقصه سارقا من أمس طفولته فجريته أو آني لحظته قمريتها .

مدينا بمقدم هذا لصباي والمشاعر التي انتابتني يومها .. لـــذاك الـــصغير صاحب الشعر الأسود المجعد الذي كنته يوما كأنـــي به قالها وسمعتها منه متلعثما بها .. أحسنت أكنت تراني يـــومها؟. أنا لم أفطن لذلك، ثم ربت على كاهلي وولى مسرعا لسابق عبثه البريء .

دونـــتها التي بين يديك .. بمغيب العمر واشتعال الرأس شـــيبا وأســـميتها هواجس التوقع مسطرا نصها بما انسكب عن مـــداد صبي ذات صبى .. لك وأنت تقرأها أن تعتبرها ضرب خيال ولكنه يحاذي الحقيقة .. يستظلها .. أزعم أنها هكذا أتت .

المؤلف

لحظة وقوفها أمام اللوح الزجاجي لذلك المحل لانتقاء ما يناسبها من ملبوسات نسائية .. ذاك الذي كانت واجهته مزدانة بدمى نسائية ترتدي آخر ما وصل إليه صناع الموضة من صرعات مجنونة .. تلك التي أضرمت النار بمن في مثل سنها .

كـــيف لا تبهـــر فتأتي وهي إحداهن مقررة أن تنتقي منه شـــيئا يناسبها.. الذي أزعجها هو وجود مجموعة من الشباب بسن مراهقتهم جوارها وما نما إليها من تعليقاتهم الشبقية حيال بعض الدمى التي ترتدي ملابس داخلية شفافة فاضحة تضاريس أنثى جيرية لم تمل التعري .

هي من سألت نفسها كيف لمثل من في سنهم أن ينظروا بتمعن لتمثال لم يمل الوقوف عارضاً ملابس شفافة بقصد غواية أنثـــى الشراء مبتزاً ما في (جزدانها) من نقود فإذا ودون أن يـــدري يهـــب الفـــرجة مجاناً لصبية موقداً في عيونهم التمعن الخابـــي فـــيوقظ شررها .. عادت وقالت لنفسها لِمَ لا؟ وكأنها تلـــتمس لهـــم العذر بمرور خط الاستواء فوقهم .. الأمر الذي جعلهـــم ينضجون مبكراً وإلا لماذا يسترقون النظر لمحرّم وهم الـــسائرون صـــوب مدارسهم متأبطين حقائب فتعترضهم دمية موقظة أحاسيسهم على حين غرة .

استرعى انتباهها قول أحدهم بأن أول من يدخل النار يوم القيامة النساء البخيلات .. وكأنه قد سبق له وأن طلب إحساناً من إحداهن فلم تجبه !! بل وإمعاناً منها في تعذيبه تهادت أمامه مهتزة الأرداف بفعل كعبها الذي زاد بطرقعاته على الرصيف من خفقه فما كان منه إلا أن صاحبها بإيقاع دقاته المطردة كأنه يعزف بمصاحبتها لحن التهادي، وإذ برفيقه يكمل من عنده بأن النار كفيلة بشواء ما يتباهين به أمام الجوعى.. علّق الآخر بأن أفضل أنواع (الشاورما) تلك المعدة من أفخاذ النساء .. هي التي لم يعد بإمكانها البقاء لئلا تتطور الأمور فقررت على عجل أن تنسحب داخل المتجر لتنتقي لنفسها شيئا .

هي لم تلحظ انعكاس صورتها للجهة المقابلة .. أعمتها الصرعات المحمومة عمن يجول بناظريه ناحية صورتها المنعكسة ارتداداً عن زجاج تقف قبالته .

كيف لرجل وفي مثل سنه أن يقف أمام واجهة محل يبيع النساء فتنة وعطوراً أخاذة متسائلة عمَّ يود شراءه ولمن .

هي من سرقها التأمل إعجاباً بأحد الفساتين وهي تقارن بينه وبين الآخر فلحظت وجوده بأنه لازال متسمراً في عين المكان متصنعاً موقف من يبحث عن شيء .

هو لا يدري أن استراقه النظر بتحايل اجتهد فيه كثيراً لم يفلح في إخفاء نيته .. تصنعه هو من وشى به .. كيف تخطيء عـــيون النساء وهن اللاتي يملكن فضح اشتهاء الكفيف .. رغم افتضاح أمره إلا أنها لم تلقي بالاً وكأنها تمنحه إذناً بالتمادي .. بل وتدعوه لإعادة الكرة .. وكأن الأمر لا يعنيها .

أغلقـــت بـــاب حجرة القياس لتقف أمام المرآة المثبتة بها تنشدها جواباً لسؤال تطرحه كل النساء عادة على صمت الجماد إن كـــان جمـــيلاً فحتماً ستبدو به أفتن .. كان السواد هو لون الفستان الذي تقيسه .. ذلك اللون الذي يحمل الفرح البهيج مندساً بين طياته الكئيبة.

ارتـــدت صـــورتها بالإيجـــاب صمتاً غير أن ما تحتاجه الأنثـــى عـــادة لا توفق في العثور عليه إلا بعيني رجل .. تلك المعضلة لم تحلها المرآة بعد .. كيف لأنثى أن تطلب من مرآة أن تتـــسع حدقتها بفعل الانبهار وهي تعلم يقيناً كونها مصنوعة مـــن رمـــلٍ منصهر بفعل حرارة عالية لا ترتقِي لدفء عاشق مصاب بداء الوله .. كم فرحت بوجوده عندما لحظت أنه لازال هناك فاسترعى ذلك انتباهها باندهاش وحيرة .

ابتسمت وهى تدفع قيمة الفستان، حين همت بالخروج

قابلهـــا وجوده مواجهة دون انعكاس هذه المرة فابتسم منسلاً فـــي هدوء وإرباك ملتفتاً خلفه بين الفينة والأخرى كأنه يتمم علـــى وجــودها .. التقى بها من جديد هو من راوده الشك فتــساءل مـــع نفـــسه مجرياً معها حواراً .. إن وقع فريسة الـــصدفة فكذبـــته نية القصد التي كانت مبيتة لديه مسبقاً في صيغة تمنٍّ أن يجدها بالجوار؟

عبـــر للـــضفة الأخـــرى من الطريق متابعاً سيره بتمهل مقصود كأنه يرجوها اللحاق ∴ جال ببصره من جديد .. فوجئ بهـــا إذ تعبـــر وراءه كأنها تقتفي أثره ماضية نحوه من خارج الممر المخصص للمشاة كأنها تقصده .. غمره الاستفهام بأكثر مـــن علامـــة فانهالت عليه دفعة واحدة .. خاف الأزقة وتقاطع الطـــرق أن تـــسرقها منه وهو الذي لم تفته كم أخفت الشوارع الملتوية من نساء .. كم تمنى على نفسه أن تغلق كلها فتُسَد كل المنافذ والمسارب الجانبية .. كذب عينيه التي نقلت له صورتها مجـــدداً أتكون حتى هذه مصادفة معادة وحادثاً مرتباً بعناية .. ألغـــى المـــصادفة عندما تكررت .. ألقى بها بعيداً متبرعاً لها بابتسامة ساقها إليها بجرأة التردد فارتدت عنها إليه بأعذب منها لحظـــته تلـــك أقـــرأها تحية الملامح ليس إلا فقد كان حذراً ألا

يــتورط مـــع عابـــرة فإذ بردّها يأتيه عبر ابتسامة يقودها خجل العذارى لدرجة أنه ظن أن المقصود بها غيره .. بحث عنه ملتفتا بالجوار فلم يعثر على أحد سواه فتيقن أنه المعني .

استجمع جرأته هذه المرة مترجماً مشاعره قولاً فأتى بـــشكل دعـــوة قـــائلاً خلالها: من محاسن المصادفات أنه ســـتجمعنا صحبة قصيرة حتى نهاية الشارع، أومأت إيجاباً كأنها توافقه الرأي بعذرية الإجابة المبللة خجلاً وارتباكاً .. جمعهمـــا الـــتحاذي يـــوماً عبـــر شارع يقطن جوف مدينة صاخبة يعلوها ضجيج الباعة ممزقاً صمتها زحمة مرورها الصاخب، بعد برهة سألها إن كانت متعبة .. عَمَّ إن كانت تـــنوي إراحـــة رجلـــيها من عناء المسير فأجابت بموافقة مبتورة قائلة:

- نعم .. أظنكَ قرأت ما يجول بخاطري .. فعلا تلزمني راحة فأشار عليها مترددا بوجود مقهى محافظ ترتاده بعض العائلات، هو لا يقع بعيداً مستعيناً بيده اليسرى في الإشارة لمنعطف يحاذي جزيرة الدوران تلك التي تلوح من بعيد هو يقع جنوبها أسفل تلك البناية .

ســـارا معاً حتى وصلاه فإذ به يسحب لها مقعداً ويضعه

قـبالة الجدار بينما جلس هو في مواجهة المارة إلا أن فعله لم يفتها فاستغلته ببراعة في فتح حوار قائلة:

- لمـــاذا غيرت وضع المقاعد سحبت هذا ودفعت بذاك هناك؟ ولأنه أبطأ في إجابتها فتبرعت من عندها قائلة: أتظـــن أننا أجرمنا فأتينا فعلاً مخلاً أمام الملأ .. أندان أنـــنا فـــي هذا الوطن .. في هذا الزمن؟ كل ذنبنا أننا جلسنا بمقهى عشية أو ضحى؟

- نعم شيئٌ من الجنوح أظن قد اقترفناه .. فاحشة شرقنا ســيدتي ألا يجــتمع اثنان إلا بموافقة مأذون وشاهدين وولي .. أربعة أفراد وفق طقوس تمنحنا إذنا بالجلوس لاحتـــساء عـــصير بمقهى .. أربعة عسس هو كل ما نحتاجه سيدتي كي نجاز فنقتعد ركنا !! .

- ما اسمكَ؟

- أتـــرين أن له قيمة وصاحبه يتخفى ألا يراه أحد وكأنه بماخور ظهر جمعة؟

- إذن ما عملكَ إن لم يكن في ذلك فضول مني .. أعني إزعاجاً لكَ؟

سيكون جوابي في هيئة سؤال .

- كيف ذلك ؟

- ما أقرب عمل يتبادر إلى ذهنك قد يليق بي ؟

- اســمع إنني معجبة بأسلوبك المميز في إدارة الحوار ذكرتني بذلك الأديب الكفيف الذي كان يملي من ظلام عاهته وقهره على مبصر فأنجز ما عجز عنه غيره.. ذاك الخجــول باســتحياء مــن عاقر الجلوس بخلوة أزهــرية لــيحفظ الكتاب، فإذ به يسطر أناجيل الحب بأسمى معانيها .. ذلك الذي تجشم والده المشاق فباع جاموســته وأقــراط زوجــته ليباهي به أعيان قريته كمقــرئ فأخجلــه ليــرجع أديباً لامعاً مُتحفاً شرقنا بروايات لن يتكرر ميلادها ثانية فإن لم تكن مدرساً فما عساك أن تكون غيره؟

- مبتسماً شكرتها لذوقها الرفيع وسمو انتقائها بما أسبغته علــي وهي التي لا تعلم بعد من أمري شيئا بإنزالي مصافاً سامية .

- أكــنتُ مصيبةً حقا وأنني نجحت من المحاولة الأولى

فـــي تبـــيانك بكشف غموض ماهيتك؟ ولشدة إعجابي بجرأتها والذي نشأ فجأة أومأت لها وأنا أهز رأسي من أعلى لأدنى بما يعني في لغة الإشارة .. نعم .

- أصحيح؟

- نعـــم سيدتي غير أنني لست سوى موظف بسيط بإحدى الدوائـــر الحكومية أقبض مرتبي نهاية كل شهر ينقضي من عمري نظير عمل مجبر على أدائه للتعيش ليس إلا.

- لقد خلت نفسي أنني قد أصبت الهدف تخمينا .

- ومن قال لك غير ذلك .

- إذاً أنا لم أخطئ الهدف أتعرف لماذا؟

- لا .

- لأن أســـلوبك وتعابيرك الفكرية وتطويعك للأبجدية خلقا لصورة ما وبعثها يجعلني أصر على أنك لست موظفاً عادياً .

ألا تؤمنين بأن الفكر يحتوى كل الوظائف ؟

قاطـــع حضور النادل استرسالنا فقدم مستعيراً أسلوباً لا

يمت لجغرافية المكان بشي أجزم بأنه قد شاهده بأحد الأفلام في إحدى قاعات السينما، فاستعار منه مشهداً لأدائه بيننا أثناء قيامه بواجبات عمله، كونه قد حاول أن يؤدي خدماته وكأنه لا يعنيه أمرنا إلا بمقدار ما نتناوله من عنده مبدياً عدم اكتراثه بما يدور بينـــنا مستفسراً عما تشربه الآنسة فسألتها ماذا ترغب وأضفته لطلبي وبصيغةِ المثنى قلت له: كوبين من الليمون! فأحضرهما بعد برهة ووضعهما بتأنٍ وحرص شديدين يليق بأداء المهنة ثم أنطلق باتجاه زبائن وروّاد يكتض بهم المكان .

- لـــم أدرِ لِـــمَ وقع اختياري على عصير الليمون دون سواه.. أمجاملة مني لها أم لكونه له من القوة السحرية والقـــدرة مـــا ليـــست بغيره في تهدئة النفس البشرية بتسكين روعها ونزع ما علق بها من قلق واضطراب.

- لماذا تبعت النادل مقتفياً خطاه بنظراتك؟

- لا هو لا يعنيني تحديداً .. كل ما في الأمر أنني كنت منشغلاً بتفسير الخطى .

- كيف ؟

- كنت أتأمل علني أجد تفسيراً لمن يسير إلى الأشياء ولا

يطالهــا وسواه من تسعى إليه .. وآخر يعدو باتجاه ما فيفــر من أمامه الاتجاه، كأنه يهرب منه وغيره يلاقيه فــي منتــصف الطــريق موفراً عليه معاناة المشوار وضناه هي الحياة هكذا سيدتي .

- وأنت أيّ منهم ؟

- إنني أحبذ المراوحة بالمكان .

- لم أفهم لكونك تُرمِّز قولك ومع ذلك فإنني أؤمن أن ما قلــته يعنـــي شيئاً ذا معنى يجعلني ألعن تلك الوظائف الظالمـــة التـــي تكبل الأفكار بقيد مادي فتجعل الآدمي عابــساً قنوطاً طيلة الشهر ليبتسم نهايته فارداً أسارير وجهه لحظة تسلّمه ثمنه المهدور وهو لا يدري ساعة قهقهــته تلك أنه باع عمره للدولة بالتقسيط ولا يفطن لـــذلك إلا متأخراً حين يحال على المعاش يوم أن يبلغ مـــن العمـــر عتيا فيبحث عن يفاعته بزمن الهرم كمن يجول بالخريف باحثاً عن زهرة فلا يوفق بالعثور إلا علـــى بعـــض مـــن أوراقها وقد ذرته الرياح بعد أن أصابها التيبس .

- أ طالبة أنت؟

- نعم .

- بأي مرحلة؟

- كـــنت أود أن أدخل كلية الحقوق غير أنني عدلت عن تلك الفكرة .

- لماذا؟

- لاســتحالة الـــدفاع عــن مظلوم أمام قاض تُوحى إليه الأحكـــام فيـــنطق جورا بما يُملى عليه مانحاً ضميره إجـــازة .. أتعلـــم أن ثمة منطق اختطه رجال القانون الفرنسيون وهم يسطرون تلك المواد مشرعين للعالم ما مفاده أن لا ضير في تبرئة بعض المذنبين شريطة ألاَّ نـــدين بريئاً .. الكارثة الحقيقية هي اللحظة التي ندين فيها بريئاً واحدا لأننا بذلك نغتال الشرف والأمانة وكل المعاني النبيلة التي أودعها الله بهذا الجسد الآدمي الذي شـــكله بيديه الرحيمتين ثم نفخ فيه لاحقا ليكون خليفته يمـــلأ الأرض عـــدلاً وســـلاماً ما جعلنا نغفر لهم ما تدحرج عنهم من رؤوس تحت مقصلتهم بفعل شفرتها الحادة .. أو تدري أنه قيل قديماً أن القاضي العادل هو ظـــل الله فـــي الأرض .. بعـــد فترة زمنية ولأسباب

يعــرفها الجميع تم رفع اسم القاضي منها بإحلال اسم الملــك بدلاً عنه، المدهش في الأمر أن القاضي نفسه تدنــى حتــى أصبح ظلاً للحاكم الذي زعم لرعيته أنه الحاكم بأمر الله فخروا له سُجداً وقد اتضح ذلك يوم أن تولــى الحكــم بنــي أمية فآل حال عموم الرعية إلى مزاجية أمرائهم حتى غلمانهم .. حين اختمرت فكرتي هذه طرحتها على أستاذ القانون في اليوم الثاني لتسلّمي الكــتب المقررة علّني أجد عنده ما يثنيني عن عزمي علــى تــرك دراســة القانون غير أن المعيب منه قد فاجأنــي به على حين غرة لحظة أفادني بخبث ودون مــواربة: بأنــه لازال فعــلاً ظلاً له وفق مقولة " إله بالسماء وآخر بالأرض " معززاً رأيه بسؤال عمن أتى بــذلك الحــاكم الصغير ليجيب في الوقت نفسه قائلاً: الحــاكم الكبيــر .. في اليوم الثالث من بداية الأسبوع الأول أرجعــت لهــم كتبهم القيمة !! ومضيت صوب سوق عكاظ .. أعني كلية الآداب .

- ولكن قد تملكين وفق براعة الدفاع أن تخففي شيئا من شقاء مظلوم فتختصرين بمرافعتك زمن محكوميته .

ـ ها أنت قلتها بنفسك .. مظلوم .. أنا أرد عليك بمرادف عـــبارتك تعني بريء ماذا لو كانها وزُجَّ به؟ طبعاً لن يفرحني ساعتها إخلاء سبيله أتدري لماذا؟

ـ لا .

ـ لأنه يُفترض بالعدالة أن تَزج بمن دَبَّر أو حاك فلفق له .. أن يُودع القفص لحظة خروج ذلك المظلوم وهذا مستحيل أن يتم .. لذلك قررت الانتساب لكلية الآداب.

ـ يا لغرابة أطوارِكِ .

ـ علي الذهاب .. أسعدني معرفتكَ ولقاؤك .

ـ ولكن .

ـ لا تكن شرقياً! فالوقت قد حان علي العودة .

ـ أ أركِ غداً؟

ـ لا أدري فقد يجمعنا لقاء آخر .

ـ متى؟

ـ لا أدري .. قد يكون غدا .

ـ أين؟

ـ لا أدري تحديـــدا فقد يكون أمام المرآة المثبتة بواجهة المحل حيث التقينا؟ دعِ المقادير فقد تكررها كما أتتها فتضرب لنا موعداً .

صـــافحتها بيد مرتعشة تزعم وداعها وهي تشد كفها الندي .. تــرجوه بالقــبض المكوث .. نهوضاً ودعتها متتبعاً خطواتها بنظراتـــي التي صحبتها حتى غابت فعادت دونها وجلست وحيداً مـــن جديـــد مُشعلاً سيجارة ساحباً من التحسر تنهيدة نافثاً دخان تــبغها محاولاً رسم صورتها كطيف أثيري تحلل فجأة مستعيراً من الذاكرة تلك الدقائق التي ولت للوراء .. أخضعتها للاجترار.

عـــدت للبـــيت تأملت الذي حدث سابحاً بخيالي لإعادة المـــشهد مـــن جديد مبتدئاً من المحل ولوح زجاجه وعبور تم علـــى مشهد ومرأى من الجميع .. مررت على كل اللحظات حتـــى وصـــلتها تلك التي تجاوزت فيها المكان المحدد للمشاة لتـــسلك غيره حدثت نفسي: أتحدٍ كان بداخلها أم تمرد؟. أم أن تأبيها عن المعتاد هو الذي أشاح عن صورتها بهذه الهيئة؟ أم تـــراه شـــذوذها عن القاعدة الصدئة هو ما أبرزها عن سواها لتكون هي؟

مـــا أقلقنـــي اســـتعمالها المتكرر لكلمة (قد) تلك الأداة

المحيـــرة قد الاحتمالية غير القطعية .. قد .. تلك الأداة المرنة المـــتمددة كثعـــبان .. تلـــك الكلمة القادرة على حمل النقيضين بيـــسر.. قـــد .. التـــي تعد وتتبرم وفق هواء من يستعملها .. الحاملـــة للبشرى بميلاد علاقة أو الناعية لها .. ما أطال عذابي هو أن الغد أصبح يقع بعيداً رغم قربه .. فالانتظار يبطئ قدوم الأشـــياء المـــرتقبة ولـــو بعـــد حين .. يعوق قدومها .. ثم أن الانتظار يمدد الليل فيمسي ليالي جاعلاً من الدقائق ساعات ثقيلة تتثاءب سالكة بمسعاها الرويدا . أطفأت نور الغرفة .. أغمضت عينـــي مـــستجدياً النوم حضوراً وامتثالاً علاج وصفته لنفسي القلقة .. لشرودي .. لعيوني التي أقسمت ألا تخلد فإذا بصورتها تتحايل على جفوني تطرق بابها برفق ولين .

لـــم تجدِ قراءتي نفعاً .. لم تفرقنا سداً، استجديت الله أن يعجـــل إلي أحد أمرين وله المشيئة والخيار: النوم .. أو إطلالة الـــيوم قـــبل وقـــته المعتاد .. لا مستحيل على الله ولأنه كريم وسخي فقد منحني الاثنين معاً .

صباحاً احتسيت قهوتي المعتادة .. تيقنت لاستعجالي من خـــلال لسعة القهوة التي ذكرتني بخروجي عن المعتاد حتى في احتـــساء القهوة، ثم تكرر تنبيهي ثانية من تعثري أثناء سيري

بـــانفلات الخطى ذاك الذي اعتراني فجأة لدرجة أنني لم أفطن فأقـــرئ جـــارى السلام كمعهود الأيام .. لم أدرِ كيف أصابني داء الـــبخل ذاك الـــذي أبغـــض من يتصفون به فإذا بي أجيزه لنفسي مبـــرراً زلتها بنية ادخاره لها فاكتفيت بانحناءة مصطنعة أنبت فيها الحركة عن صريح القول ولأنه قد أصبح أمر العالم لا يعنيني في شيء كون أحداثه الساخنة قد بردت بتوقع لقاءها المضرم .

مـــن بعـــيد استطلعتها .. سألت عنها المحيط الذي كان بالأمس قد احتواها مستفسراً من الحين والمكان عنها .. أيكون مقـــدمها من هنا أم من هناك؟. ألم تكن مرسومة على صدرك أمـــس قريباً قد كان؟ من جنوني أفضيت بمشاعري للوح من زجاج كانت قبالته أمس تنتقي أشياءها مخلفة صورة لها عليه وهـــو الواشي دوماً بما خلفه سائلاً إياه عنها .. أتراها مجرد عابـــرة تـــصدقت على متسول يعاني فاقة عاطفية فتبرعت له بوجيـــز اللقـــاء ليحتسي صحبتها كوب عصير على رصيف المصادفة .. لقاء قد لا يتكرر ثانية إلا بتواطؤ القدر أمام أحد مـــا قـــد كنـــته بالأمس ليكونه اليوم أو غدا شخص آخر بهذا المكان أو سواه .

وقفـــت أمـــام المحـــل أحمل سبباً وجيهاً يجيزني ترقب

حضورها مراهناً على قدرية حدث قد يلده المستحيل وهو العاقر دوما فينجب صبية .

أمـــام حيرتي وذهولي حضر عامل المحل مباشراً عمله المعـــتاد مبتدئاً بكنس الرصيف الخارجي ورشه بالماء ثم عندما فـــرغ من ذلك توجه صوب واجهة المحل حيث زجاج العرض هامـــاً بتلميعه، لحضتهاكنت أرجوه سراً أن يبقي على ما خلفه طـــيفها عليه .. لم يسمعني ففعلها ملغياً أثرها بمنشفة في يده .. لـــم أمتعض من فعلته بل انتحلت له العذر بتسامح المحبين بأن كـــيف لــــه أن يجيب همسي وهو لا يبصر بعينيه ما أراه بقلبي لأديـــنه مجـــدداً بأنه لو نظر إلي للحظ انكساري وخيبتي جراء فعلـــته تلـــك مستنداً لحجة أن لو سألني عن مسحة الحزن التي تكسو ملامحي لحظتها لأفردت له قولاً كان حتماً سيقنعه بتأجيل إلغائـــه لحلمي الذي وئد بمنشفة ممزقة بالية كالتي بيديه .. تلك الخـــرقة القديمة التي يؤدي بها مهنته التي يتكسب منها ويتعيش مزيلاً بواسطتها ذرات غبار كان طيفها متوارياً خلفها دون أن يـــدري .. عدت ألتمس له العذر من جديد بأن كيف له أن يعلم أن ثمة صورة لإحداهن من شدة توهجها الوضاء أن علقت بلوح زجـــاج تمر بمحاذاته آلاف الملامح والصور يومياً فلم يبال إلا

بهـــا وكأنهـــا الوحيدة التي مرت .. بين خبل المحبين وصوفية العشاق سكن ابتلائي .

كل المارة لا يعنونني في شيء .. فقد كنت أراهم أرجل مجردة تحمل أجساداً وتلك تحمل رؤوساً والأخيرة لا تحمل شيئاً .. عالم يعج بجثث تسعى على رصيف ما هكذأكنت ألمحهم .. كان علي استهلاك الوقت بأي ذنب أو معصية لحين قدومها .. بـــررت لنفـــسي بجواز ذلك .. وفجأة لاحت إحداهن من بعيد أظنها هي لقد كانت قادمة من ناحية اليسار .. كيف لي أن أتأكد مـــن كونها هي؟. أأعدو إليها؟. لا عدت وقلت قد أقابل غيرها ظـــناً مني أنها هي .. خفت أن تمثل أخرى فتسجل علي قدماي خيبة المسعى .. ولكنها هي حتماً فقد تبينها الفؤاد بخفقه الذي لا يعرف الكذب تخطيء العيون دائماً .. تؤخذ ببريق الأشياء .. يعمـــيها الانـــبهار المرائي وانعكاسات الخديعة حتى يترآى لها الـــسراب مـــاءً، توحي للسمع بأنه نهر فيتناهى له خرير الماء مـــصاحبا لـــصوت تلاطـــم أمواجه فيدلي المخدوع بدلوه ليعب المـــوت الحارق بقصد الارتواء .. مزيدا من الحريق المفضي للتهلكة دون أن يدري فيقبض ظمآن على ضفافه موتاً حارقاً .

عـــدت وقلت معززا إيماني المنهك .. الفؤاد هو الدليل الذي

يرشـــدنا داخل العتمة صوب من نحب كأنه يقود كفيفا استغنى عن عكازه فلم يعد بحاجة إليه بعد أن لاح له اليقين خفقاً .

مددت لها يدي قائلاً: أخيراً .. فابتسمت وهى تقول: منذ متى وأنت هنا؟ ترددت في الإجابة ولكنني عزمت على ألا أقول سوى الحقيقة .

- أنـــا هـــنا مـــنذ ساعة بالقياس الوضيع للزمن المادي وبسواه منذ الأمس الذي جمعنا وفق ظرف غير خاضع للتحديد لا أملك له تعبيرا .

- لا أحـــتمل قـــولك هذا وقوفاً إما أن تستضيفني لمكان الأمس أو تتوقف عن الهذيان .

- اســـمعي جـــيدا: قد أتوقف عن الكلام غير أنك قد لا تطيقـــين مشاكـــسة الصمت الجريء فأخالكِ بعد ذلك تقولين حدثني من جديد لم أعد احتمل دوي الصمت .

ابتـــسمت وهي تقول هيا بنا .. حين وصولنا بادلنا النادل التحـــية كعادته كأنه يعرفنا منذ أمد بعيد، بل وكأنه كان منتظراً قدومـــنا بعـــد أن تكرر مجيئنا فإذ بها تفاجئني فتنتخب كرسياً وتضعه قبالة مقعدي قائلة أهكذا توده أن يكون؟ أجبتها بابتسامة

تلـــيق بتوفــيقها في اختيارها لقبلة التعبد .. لما لا فالحب النقي عبادة وتبتل نثاب عليه .

– لا أود أن أســألك اســمك إن لم تتبرع به أنت، لقد تبينت عملك أمسِ، ما أود معرفته هو أنه كيف أمضيت ليلتك؟

ولشدة دهشتي من جرأة السؤال أجبتها بشيء من الإيجاز .

– معكِ منذ انعكاس الصورة حتى حضور الأصل أتكفي إجابتي شبق السؤال؟

– لا .. إنها تزيده غموضاً .

– اسمعي كنت أود أن أطرح عليك السؤال ذاته .

– أتريد جوابا أم اعترافا ؟

– اعتراف .

– لماذا؟

– لأنــــه الأشــــمل فهو الذي يحتوي كل الأجوبة التي قد تسقط عمّا عداه من أسئلة .

– كيف تشتم صدقه؟

– من رائحة عينيك خلال المواجهة .

- لا مفر من الاعتراف بأن أرقاً أصابني .. حاولت النوم كثيراً لم أوفق ثمة صداع خفيف انتابني ولكنه لذيذ .. استبقيته بمحض إرادتي عمداً لا لشيء عدا استمتاعي بوخزاته اللذيذة، لقد كان بمقدوري أن أبعده بقرص مسكن، فضلت ألا أفعل ذلك .. قرأت يوما تعريفا للسادية مفاده: هي التلذذ بآلام الآخرين غير أنني لم أجد غير نفسي لحظتها لأقتص منها فشعرت بسعادة جمة جراء مأكنت أجريه عليها .

- وماذا بعد؟

- ألا يكفى هذا؟

- لا .

- المهم أنني استلقيت على فراشي اجتررت أمسي فوجدتك فيه .. رأيتك أمام المحل حيث عُرِض الفستان الذي كنت أود انتقاءه تتلصص عليَّ تبتاع بعينيك الجائعة رؤيتي .. تأملته مرة غير أن وجودك المفاجئ هو ما شدني أكثر منه كأني خرجت أنتقيك لا هو .

دون أن أدري كـــنت ساعتها مشدودة بتلقائية العثور على شيء لم أخرج للبحث عنه .. أنت تعرف القصة .. كلانا عابر على ما نظن أو نعتقد غير أننا لا نشعر بما يتخللنا من أحاسيس أثـــناء ســيرنا بالحــياة إلا بعــد أن نتفحص ذواتنا ساعة نقوم بمـــراجعة مـــا بدر عنها أو إليها لحظة اختلائنا بها لنؤمن بأن شيئا ما قد حدث.

- ألا تشاركني الرأي فيما أقول؟

- نعـــم فالإيمان بما تقولين أكبر قيمة من المشاركة فيه رأياً أو اعتقاداً .

- أتجاملني بقولك هذا ؟

- إنها الحقيقة .

- ألا يكفيك جزء من اعتراف؟

- لا .

- أتدري أن حديثك هذا مثل البارحة .. لقد انتابني الآن صـــداع ..ألـــم تعلـــم أن تسكين الأشياء هي الخطوة الأولى لقتلها؟

- دعيـــنا من عبث المفردات واللهو بها فهذه اللحظة لا تخص الفلسفة.

- أصـــغي إلـــي جيداً إما أن أستمر في سرد ما تولى أو أتناول مسكناً لأوقف الصداع .. أن أروي بصدق ناقلة ما جرى بأمانة الراوي فهو الصداع بعينه أليس كذلك؟ نعـــم .. إذا فحيث لا يوجد صداع تغيب الحقيقة فتنوب المجاملـــة عـــنها حضورا أتريد مني أن أزركش لك أمسي بشيء منها وأنثره أمامك؟ - لا .. لا .

- اســـمعي: يـــوم ألتقيتكِ لاحظت انضباط كل المارة إلا أنـــتِ .. شدني إليكِ خروقكِ للعادة المكررة .. فإذ بها تـــرفع عينـــيها للسماء جراء قولي وكأنها تبحث عن الـــنقطة التي توقفت عندها فتقول: يا إلهي نسيت أين تـــوقفت؟ أســـعفتها عند الصداع قالت: إنني نمت نوما عميقا ليلتها.

- ألم تلحظي شيئاً ؟

- لقـــد كانت ليلة غريبة .. متنهدة تقولها وكأنها تستدين نفـــسا عمـــيقا للغوص بأغوار فؤادها علها تعثر بقاعه عمـــن ينـــشل ترددها .. تدخلت محاولاً جذبها لحديث

جانبي لا علاقة له بشجون الوجد والتساؤلات الواضحة الغمـــوض محاولاً به تأسيس حديث آخر يخرجنا من صراحة القول والشعور بعدما أحسست بارتباكها المبلل خجــلاً وما طفا عن وجنتيها من احمرار مفاجئ أثناء طأطأة رأسها لأسفل فسألتها مستدركاً الموقف:

ـ مـــا هـــو المقرر عليكم شعراً؟ فألقت لي بكتاب وهي تقول: يزعمون إنه يحتوي شعراً .

ـ وماذا وجدتِ به؟.

فابتسمت تقول :

ـ يحتوى شعرا ينقصه الشعور .. به أوزان تكبل حر القول.

ـ على فكرة من أنصار من أنتَ؟

ـ صراحة أنا مع المهاجرين .

ـ لم أسألكَ عن الصحابة .

ـ أنـــا لـــم أتكلم عنهم .. الذي أعنيه وأقصده تحديداً تلك القــصائد المهاجــرة التـــي لم يجد أصحابها مكاناً لها بصدر الوطن وكأنه لم تعد به مساحة تسع أبياتاً لهم به

فولدتها قريحتهم بغربتهم بعيداً عن مسقط رؤوسهم التي أنجـبوا بهـا حيث شبوا وترعرعوا وكأنه حُكِمَ على الـشاعر أن يمـدح بالداخل من يشاء شريطة أن لا يستاء إلا خارجاً .

بـبلاد الـضباب والجلـيد سيدتي وُلدت قصائد لم تحس بالـدفء إلا بصقيع الغربة !! .. الجواهري مثلاً أبلغ ما جادت بـه قريحته من قصائد مشتعلة ولدت بالقوقاز المحاذية لمنافي البلاشـفة بـسيبريا .. يوم أن وصلت تخومنا بعضنا اتخذ منها نشيداً وفق ما يعاني أما الآخرون وما أكثرهم رددوا أبياتها في الزنازين بالشتاءات المريرة للاصطلاء !! .. ألا تدرين سيدتي أن ارتجاف الجسد النحيل بالقبو لا يهمد ويسكن إلا بآية كريمة أو شطر قصيدة، أما إن كنت تقصدين قديمه أو الجديد منه فإنني أحـبذ القـديم كونه الأصل رغم كيله المشاعر ووزنها واضعاً الأحاسـيس في كفة (فعل) أما الحديث منه فإنشائي إنفلاتي يذكرنـي بالصحف الرسمية و ديباجات المماليك بحضرة الباب العالـي .. إنني أحبذ الثالث الذي لم تسمعي به .. ذاك الذي لم يدون بعد حتى وإن كُتب افتراضاً لا يمكن قراءته كونه إحساس وجد لا يتأتى للجملة أن تحمل عظمة بوحه ولا تعثرين عليه عادة

إلا خارج المنهج العقيم ولأن محيطه كبير فإنه يحوي كل البحور الـــراكدة العـــبارة .. هو نوع من التأمل والسباحة بنبل المشاعر تجـــاه الكـــل دون استثناء .. هو أشبه بمواعظ السيد المسيح أو تعاليم ووصايا بوذا .

- ألديكَ شيء منه قد تستحضره؟

- إننـــي نظمته فيكِ على بحر الصمت .. قصيدة لأجلكِ مكممـــة البوح كتبتها بمداد إحساسي .. بمخاض عيني لحظـــة إبـــصاركِ .. بدفء ما سرى بي بألوان قزح التـــي ظفرت من بهائها لأجلكِ قلادة فينيقية .. هو يا صـــبيتي تبـــتل وحالة عبادة .. كصلاة أتباع بوذا من الهـــنود تـــأملاً لإلــــه جالس قبالتهم القرفصاء يسألونه حاجـــتهم فلا يجيبهم لحظتها فيأوون إلى فراشهم غير قانطين مؤمنين بأنه مساءً سيزورهم محققاً لهم رغباتهم المتواضـــعة بحجم قبضة أرز أو مد حنطة فيأتيهم من خـــلال حلم جميل مربتاً بحنوٍ على انكسارهم .. جابراً خيبـــتهم فتمطـــر بآخـــر ليلهم الداهم السماء وبفجرها الفضي تلد بقرتهم العجفاء عجلاً سميناً فيحلبون لطفلهم المشرف على الهلاك جرعة تبقيه .

فابتسمت باندهاش قائلة:

- يالعذوبة قولكَ .. من أين تأتي بخمرته ؟!

- كـــروم حـــضورِكِ .. سيدتي غيب يقيني، فمنذ أمسي معـــكِ وأنا أنظم حروفي مرتباً جملي على ذلك البحر كـــيمّ أنـــتِ ضـــفته أو شاطئ ساكن عثرت عليكِ فيه فتلاطمـــنا .. لمحتكِ قبالة الشمس الفضية تلهين برماله الذهبـــية تشيدين قصراً من حباته الصفراء يسع اثنين .. وتسألينني شعراً .

ألـــم يـــروي لـــك أســـتاذكِ المـــبجل شيئا عمّا تلا سابع المعلقات؟ فيبلغكِ بأن الثامنة قد نظمها عاشقان صمتاً فيما بينهما ولـــم يسمعها أحد سواهما حتى يخبرنا عنها .. أظنه لم يتطرق لتلك القصائد التي لم تتشرف بعد بالستار حتى تعلق عليه وكأنها علِّقت بآخر رفع بعيداً، ساعتها قلت: يا إلهي .

تنطقـــين بالـــشهادة فسألتك أتعانين احتضاراً أم كفراً كان اعتقادك فيما سبق لحظة حل لديكِ إيمان بمنهج جديد .. أم كان ذلـــك تعزيزاً منكِ لإيمان مهدد بشك وكأنني الذي منحتكِ اليقين عندما قلتُ لكِ ما قلتُ؟

سيدتي لست رسولاً ولا أدعي النبوة أو أزعم الولاية غير أن العـــشق بعـــث ورســـالة لا ينال شرف الإيمان بها إلا من أصـــابهم الوله بداء الخفق لحظة اللقاء فيثابوا عن عناقهم كأنهم أدوا فرضا قصّر عنه غيرهم .

ســيدتي .. عفـــوية القول وبراءته أستسمح بهما غفراناً أرجـــوه عم بدر عني من صدق و تجلٍّ أمام مؤمنة أراها يتيمة في عالم يعج بوثنية المفهوم المغلوط للمعان السامية فيه .

أذكر أنني عقب قولي منحتها منديلي لتمسح دموعها وكأني أجيب التذرف سؤاله ململماً انسكابه ألا يسقط على الأرض فتدوسه الأرجـــل ساحقة طهر زمزمه فأستغل المناسبة متخذاً منها ذريعة فـــداعب وجنتيها بعد قلب الأشياء والنظر فيها لعمق القصد القابع بين طيات منديل يزعمون أنه لا يملك إحساساً .

لم أحسد أحداً طيلة عمري أكثر من منديلي ذاك لحظتها والذي وضعته أمامها بعد أن لثم خديها على مرأى مني مسائلاً ظنونـــي عمَّ إذا كانت ستدب الغيرة بيننا فأحرقه انتقاماً لما بدر عنه من انتهاك؟

كانـــت هـــي آنـــذاك منشغلة بترتيب محياها الذي جمله الانفـــلات الطبيعي لحظة تفجر المشاعر البكر غير أنها ببراعة

وذكـــاء لا ينم عن براءة قادتني لحديث وكأنها تود الهروب مما فيه لغيره قائلة :

- ألا تحمل ساعة مثل غيرك؟

- ماذا أفعل بها؟

- مثل البقية .. يقيسون بها الوقت ويرتبون بواسطتها المواعيد.

- لا .. إنهـــا تذكرني بهيئة عصرية للأغلال في صورة حديـــثة .. ثـــم إن المواعـــيد المهمـــة هي التي تقرع أجراســـها الذاتـــية مستقطعة من الزمن لحظة ميلادها المهيب، أما قيمة الوقت فهي جدلية بسيطة مفادها: أن القيمة لا تكمن في الزمن ذاته، إنما بالأحداث التي تقع طـــيه أو خلالـــه، وإن أفـــضل التراتيب الزمنية تلك القدرية التي لا تخضع لأي قياس، واستدلالا على ذلك وجودنا هذا في استضافة عفوية .

- ألا ترين أن ذلك قد يصلح دليلا للبرهنة على ما سبق؟ كلمـــا حاولنا المغادرة سيدتي نجد أنفسنا لم نبتعد بأي قـــدر بل يزداد توغلنا لنلتقي بالبداية وكأنها سبقتنا إلى هناك كي نلاقيها مجددا .

ســيدتي أعجبني تمردكِ على النصوص البليدة وعبورك اللافت من المكان الذي يقع خارج التوقع والانتظار المحدد عادة للمــشاة العاديــين جد ما شدني نحوكِ تمردكِ على الشرقيات الغبية المندسة تحت ستار اجتماعي مهلهل بدعوى: أن ما نحسه وجدا فنترجمه شعورا نعيشه ونحياه هو نوع من التهتك اللفظي لا يجــوز لنا الخوض فيه حتى همساً .. ما يقلقني هو انسحاب عينيكِ من أمامي لتلقيها على ساعة بمعصمكِ لتعلني من خلال قــراءة مؤشــرها أن الميعاد قد انتهى لأقر منكسراً بأن فسحة جميلة أزفت على الانقضاء لأن رحيلكِ الغروب عينه ألا ترينه يرسم عنوة قطوبي؟

أتغادرين حقا؟ سؤال أخير سيدتي تفرضه حاجتي أتسول به بقاءكِ عمّا أفعله بنصف نهار مظلم أشد قتامة من ليله الدامس؟

لملمــي أشــياءك وصــففي شعركِ ولا تنسي أن تتركي تعويــضا عنكِ يشدني إليكِ فيمدني بصبر لحين لقاء .. فتكرري قولكِ القاسي بأنكِ قد تأخرتِ هذا اليوم أكثر من الأمس حتى جاء ذكركِ بأنني: كل يوم أسرق حيزاً من وقتكِ وأنكِ تخافين تطور الأمــور بيننا فأتمادى حبيبتي فأسرق يوماً ما يوماً بأكمله مختلساً معــه المــساء .. أتذكــر وأنتَ تستعيد منديلكَ أنني قلت لكَ وأنا

أمازحـــكَ .. أ بخيل أنت إلى هذا الحد؟ فإذا بك تنفي عن نفسكَ زعمي فتقول إنكَ تحتاجه إن عاودكَ الحنين إلي ذات أرق.

أنتَ أدهى مماكنت أظن أو أعتقد، كان ذلك آخر حوارنا نَهضَت واقفة .. عائدة سارت حتى غابت دون أن تعد بشيء أو أن تحمـــل الغد أمانة اللقاء .. بين يأس ورجاء قفلت راجعاً لم أحـــاول تتبع خطواتها .. ثمة قيود ذاتية لا تجيز لي التلصص حتـــى بتعقب الخطى .. كان ميسوراً لي أن أفعل ذلك دون أن تشعرِ بي، عدت فقلت كيف لي أن أسرق خطاها من الوراء وأنا الذي جلست قبالتها صدقاً .. ألم نتداول مشاعر نقية سواء؟

اســتلقيت علـــى فراشي فاردا منديلي الذي أقسمت على نفـــسي ألا أغسله محرماً عليه الماء وكأنه دنس قد يلوث ما قد علـــق به من طهارة لها متذكراً لحظتها عامل المحل وهو يزيل الغـــبار عن زجاج العرض بينما لا يدري أنه يمحو دون علمه أثـــراً لها كانت قد استودعته المرايا .. لن أكرر الخطأ إلا أنني احتـــرت بـــأي مكان أضعه .. أ أسفل الوسادة كي أراها حلماً جميلاً هذا المساء؟ أم أغمض عيني واضعا إياه فوقهما كي أنام قريـــر العـــين كما يزعمون؟ أم أضعه فوق أنفي مستنشقاً من خلالـــه عـــبق رائحتها الذي تشبَّع به فملأ فوحه فضاء غرفتي

والأرجاء؟ شطحت بي خيالاتي وفق تشظي نفسي المحبة بين قدسـية منديل يحمل أثراً لعشيقة وقراءة المعوذتين مستغفرا .. عدت وقلت: هي ملاك فكيف لي أن أستعيذ منها؟ غشاني النوم دون أن أوفق لحل تلك المعضلة .

الـشوق طـريق يرسـمه العـشاق .. يرصفه المحبون باضـطراب خفقهـم ساعة اللقاء وحين الوداع .. بالدقات اللاّ منـتظمة .. بغياب الكلمات وحضور المعاني .. بتفقد الملامح وقـراءة الـبوح بالعيون .. بحرارة اللقاء التي تذيب الجليد .. بجـبال الكلمات وحصى الحروف .. الشوق جوع مدقع لا يسد رمقـه إلا وجـبة حب .. هو الابتلاء والمعصية المجازة التي نثاب عنها .

كـنت أعلـم أن سـبب عدم قراءتي المعوذتين مرجعه إصـراري أن يزورنـي ملاكهـا الجميل .. حين تغيب وطال انـتظاري لـم أجـد بدا في الاستعانة بقريني فأسرجت إبليسي وامتطيته .. أنفذته متسللاً إليها على براق الحلم ذلك الذي يعهد بـنقل المحبـين صوب مرادهم مجاناً .. لا أعلم أطوعاً رحلت إليها أم بناءً على استدعاء .. نعم رأيتها وما خجلت منه صحوة ألقيته أمامها .. أحضرته من عقلي الباطني فنطق بالمنام متجرداً

من خوفه المزمن الغريب أنني سمعت نفسي أصارحها بما كنت أعجز حتى عن الإشارة إليه من بعيد قائلاً لها :

أتعانـــين فراغاً مثلي؟ أجوعاً تتضورين لآخر قد تشبعين بحـــضوره؟ لمـــا أنـــا تحديـــدا تم اختياري؟ بل من منا ساقته المـــصادفة ومـــن تـــصنع القصد فسلكه متخذا منه مسرباً حتى التقيـــنا؟ أم تـــرانا أننا باليوم الثامن ذاك الذي يلتئم فيه العشاق فيجتمعون للصلاة متأبطين فيه بعضهم متعانقين يرتجفون تحت البرد من حرقة اللقاء .. كيف لا وقائل أسماه اليوم الذي لا يملك اسـماً أو أن كان له فيما سلف من الأزمان فأضاعه الملتاعون ســاعة اللقاء لحظة توقف مؤشرات الساعة عن إحصاء ما تلده من ثوانٍ إجلالاً منها لقدسية الحدث .

عدة تساؤلات مضنية مرهقة لم تتبرعي بالإجابة عن أيٍ مـــنها سقتها إليكِ بجرأة الحلم فارتدت عنكِ دون إجابة .. كنتِ بـــالحلم تبتسمين من اقتحامي مخدعكِ دون استئذانكِ فتسأليني كـــيف لم أطرق بابكِ ونسيتِ خفقاتي بمساءات يُتم غيابكِ يا من ضـــننتِ علـــي بصراحة الجواب ولو عبر حلم ذات مساء كان بإمكانـــكِ أن تتبرئي منه صباحاً فتصفينه بأنه محض خيال أو أضغاث أحلام وكفى .

استيقظت صباحاً مُلملماً أشلاء حلمي المسائي محاولاً استذكاره جيدا وتجميعه لأقابلكِ به عندما نلتقي صحواً .. فوجئنا يومها بأن المقهى مغلق لسبب نجهله فنظر كل منا للآخر باستغراب وكأن كلاً منا يبحث عن الإجابة نفسها بل يطرح السؤال ذاته: ألا يوجد مكان يأوينا بعيداً؟ أضاق صدر هذه المدينة الجاحدة لهذا الحد؟ ألا يوجد بها ركن ضيق صغير يسعنا فيتيح لنا مأوى لا تدركه أعين الرقباء؟

أذكر أنكِ كنتِ تملكين من الجرأة ما فاق حيرتي المنهزمة تردداً أمام المواقف التي تولد فجأة فأتى قولكِ ذلك كطوق ألقي تجاه غريق فنجا حين قلتِ .. اختر أي مكان يسعنا حتى إن كان جحيما فلن يكونه حينما به نحل وتسترسلين واصفة حضوري بأنه يغني عن غياب الكون برمته مقرّة بكوني كونكِ فتجيبين وأنتِ السائلة فتقولين: ما عساي أن أكون بحضرتكَ سوى نجمة مذنبة هائمة على وجهها تائهة في فضائكَ كانت قبل أن تلقاك على شفا أفول .

- لدي مكان بأطراف المدينة أحترف فيه الكتابة والهذيان معتزلاً الجميع أحتفظ فيه بمخطوطات ذاتية كنت قد دونتها سابقاً لم يطلع عليها أحد سوى صديق

حميم تربطني به علاقة مبكرة تلك التي نمت فيما بيننا باطـــراد مـــنذ اقتسامنا المقعد الخشبي يوم جلسنا معاً بذلك الفصل الرطب بالمدرسة التي لم يعد لها أثر .. إن كان يروقكِ مصاحبتي فأنا المدين لك بتلبية دعوتي كـــبائس مشرد يلتمس في زمن الفاقة والعوز إحساناً فـــنلت موافقتكِ وأنا الذي كنت منذ دقائق قليلة مضت أنـــدب حظي بل سوء طالعي لإقفال المقهى المفاجئ فصرت أعزي نفسي بجمل إيمانية مفادها: بأن الذي يوصد عليك باباً مخطئ فثمة من يشرّع لك غيره بما يـــساوي رحابة الكون حين وصلنا سألتكِ عن المكان الـــذي تفضلينه فقلتِ الذي به أنتَ، ارنـي غارك الذي تحتـــرف فـــيه الهـــذيان حين فتحت الباب قدمت لكِ مقعدي وأنا أقول:

- شيطان إلهامي ووحي تخريفي كان يتلو هابطا علي هنا.

- لابد من ترتيب المكان .

- لا دعه هكذا فالفوضى تزيد من روعته .

أتذكـــرين أنكِ نظرتِ إلى ثيابي القديمة المعلقة بمشجبي الذي كان عبارة عن خشبة قديمة مثبت بها عدة مسامير صدئة

.. بالركن المقابل كان ثمة موقد فحم تجاوره أكواب صغيرة .. علــب سجائر فارغة متناثرة بالأرجاء، بركن الغرفة ثمة فراش علـــى ســرير حديدي قديم .. كنت تستغربين المشهد متسمرة تجولين بعينيكِ غربة المكان .

أدهشتكِ بعثرة أوراقي المنثورة بعفوية الإهمال .. بدأت تعبثــين بهـــا تصفحتِ بعضا منها بحدس مخبر يستنطق من الجمـــل معناها الآخر وأنك حدقتِ ملياً بقصاصات منها كنت تبحثــين عـــن أثر لأخرى اسماً صريحاً لم أكتبه بعد .. كانت هـــناك بعــض إشـــارات .. تضمين لأنثى دون اسم أو كنية مـــشروعات كـــتابة يقيـــنا كنت تودين أن تكونيها .. كان ما يـــراودك من أفكار رأيتها ترتدي جملاً استفهامية سابحة تطفو علـــى محـــياكِ وأنت غارقة بالظنون الوحيد كنت الذي يملك جوابها قبل أن تسأليها ويملك انتشالك مما أنتِ فيه، للمصادفة البحتة أمسكتِ بورقة كانت عبارة عن خواطر منثورة وبعض مقالات تنوح بما آل إليه الفلسطينيون .

قـــرأتِ إحداها والتي كانت تحت مسمى (مظروف لبابا نـــويل) .. شـــدكِ أنني سألته محيراً إياه أن كيف له أن يطرق بـــاب خـــيمة لاجيء بالليلة المباركة .. بل ماذا كان يحمل له

عِوضاً عن الوطن مقترحاً عليه أن يقبل من الفلسطينيين هديتهم وهـــي ثـــوب ممــزق بفعل الطلقات لصبي اسمه الدرة معبقاً برائحة الدم والظلم والزيتون .. ثوب أصدق من قميص النبي (يوســف) .. وأنـــكَ أفدته بمقالك أنهم بحثوا عنه طويلاً فلم يجدوه لتسأله قائلاً: أين كنت يومها فقد قيل لهم أثناء بحثهم عنكَ أنـــك بالحانـــة تحتسي الجعة مع رواد مقنعين .. تتبادل معهم الأنخـــاب وأنكَ استحلفته قائلا: بأي نصر تحتفلون بحق المسيح ابن مريم .. شدني أيضاً قولك بأن: مملكة الرب دنسها العابثون فقــد أقــصي (الدلاي لاما) عن عباده .. أصبح اعزلاً رب معطل الصلاحية مشيرا لـــ (بوذا) الذي كُبلت أياديه خلف ظهـــره بأنهم لم يتركوا له حتى واحدة يربت بها على عبد من أتباعه أو يكفكف بها دمعته المنسكبة عن مقلتيه المنسابة لحظة العـــوز أو الظلـــم والقهر .. واحدة لا أكثر قد يدعك بها ظهره على الأقل .

كانـــت الرسالة الثانية مشروع خطاب يخص الأديبة الجزائـــرية أحلام مستغانمي معنون إلى لبنان تحت مسمى (مسك الغنائم / أحلام) سألتك عما تعنيه العبارة فأجبتني بأنـــه اسم أمازيغي الأصل لمدينة مستاغانم الحالية .. شدكِ

بـــيانها وبلاغـــة مفردها فأنبرأتي ترتلين نصها جهرا كأنكِ تلقينها بحشد:

(بـــزمن الطـــوفان والتـــشظي يبحث الغرقى عمَّ يشدهم لأعلى حتى إن كانت قطعة خشب طافية أو جثة لأحدهم كان قد مات منتفخا قبلهم .. بزمن القنوط يُبعث رسول أو امرأة تنجب نبياً كما حدث لـــ بنت عمران ففي زمن السكون كعلامة جبن وارتجـــاف لابـــد من أحد ينطق بحده الأدنى ولو بزفرة استياء مفادهـــا آه .. بـــزمن الحواســـم هذا سيدتي لم ينتحر أحد على أسوار بغداد سوانا .. هالنا أننا أدمنا الخطب كوجبة بالمناسبات الوطنـــية ابتداءً من عيد جلوسه على العرش إلى مناسبة ميلاده الكريم فكم تجرعنا سيدتي من السين وسوف كؤوساً حتى انتشينا فإذ بنا نراقص الهزيمة وسط أشلاء ذوينا يوم أن تبادلنا أنخاب الصمت والذهول فوق المقابر الجماعية .

وتـــستمر في مخاطبتها بقولك: يا سيدتي .. ما ضرنا لو تـــصالحنا بدءا لو تصافحنا قبل أن نكرّ .. ماذا لو أن كل ملك مـــبجل قـــدم كـــتاباً لرعيته لمحا به عار أميتهم .. أتدرين لو فعلهـــا.. لسما بهم فوق التصفيق أسفل المنصة .. ماذا لو سخّر صـــاحب الـــركن المهـــيب ما بحوزته منشئاً حديقة جوار كل

منزل.. لتعلم بنونا من الطير الحرية .. ماذا لو غرس بالحديقة شـــجرة وبعــض أزهار لدعت بناتنا الفراشات للرقص .. للبت وجابـــت مع النحل المكان لتعبدنا المبدع لجناحيها .. لما تربعنا أسفل منبر وكيل الله بانتظار برهانه .

من قزحية الألوان سيدتي نستقي الدليل .. نقدم له اليقين بـــرهاناً بأن من رسم تلك اللوحة فوق ظهرها هو المبدع للكون الجمـــيل .. وتـــستطرد قائلا بخطابك لها: يا سيدتي كيف أنتِ وعمــتِ صـــباحاً فنحن لازلنا بالمساء مسيجين بأسلاك شائكة قوامها عيونُ عسس وآذانُ وشاةٍ فعابرُ سريرٍ غدا منشوراً سرياً والبـــيان رقم (3) لثقافة كتاب كل ما فيه ممنوع من الصرف وفقاً لقواعد اللغة القديمة .

عزائـــي اليتيم أنني قرأت ما تكتبين وكأن ثمة من ربت فوق كاهلي قائلاً لا عليك .. كمن جاءت كفه الرحيم تلك بمنديل .. كمن أقعد الأذان بمنبر وأقامه بكتاب .. كمن قال صلِّ قائما فمـــا عـــاد الـــسجود يجدي كم تضاءلت سيدتي جوار كتابك الـــصغير الحجم .. هالني مقدرة مفرده على الشفاء .. وتسألها مستـــسفراً: من أعطاكِ كل ذلك؟ أي وحي هبط عليكِ لأؤمن .. بـــل مـــن أشار عليكِ به لتصفيه لنا كدواء فنحن لم نقل بعد آه

كيف لكِ أن تعرفي أننا توجعاً نتألم؟ أعراضنا لم تتبئ عنا شيئا لم تشِ بعد فمن الذي أنبأكِ سيدتي؟

يـــا من ظفرتِ من المفرد جدائل ومضيتِ تتباهين زَهوا حُقّ لكِ أن تفعليها فما عادت نون النسوة سُبّة بعد أن لحقت تاء التأنيث أشباه الرجال .

يـــا سيدة الحرف وأم الجملة أرضعتنا أبجدية حتى سكن الوجـــع فيـــنا فتباً لليد إن لم تصافحكِ وانحناءة تصحبها إجلالاً يفوق تعبد مؤمن بمحراب .

أي ذنـــب سيدتي اقترفتهِ في دنياكِ كي تتوجعي نيابة عنا وكأن رفع المسيح جُرح بجسد المؤمنين تلقاه نيابة عنهم وإلا فما عساه أن يكون؟

ماذا يعني أن تشتري إحداهن من فوضى الحواس وذاكرة جـــسد عدة نسخ وتعلقها بشجرة الميلاد مستبشرة بعام جديد فما عـــساي فاعـــل وأنـــا الذي أدين بالإسلام؟ وتُكمل نصك البديع فـــتقول: يـــوم تتبعتكِ في ضيافة فضائية لبنانية أوصدت على نفـــسي وبكيت ألا يرى جنوني آل بيتي لأكررها من جديد بعد مـــضي عام وأنتِ باستضافة فضائية الوطن ذاك الذي يخصكِ يوم نفذتِ بعنقكِ ألا يُحز بسكين مُلتحٍ وكأن البكاء لم ينقطع؟

تعتــرف بانــبهارك قــائلا لها: يا سيدتي لا أملك حيال حضوركِ إلا غياب يوم غدوتِ مصحفاً بكنيسة لتصيري إنجيلا بمسجد .. تصححين المعنى بسمو العبارة لما فوق السماء .. أية دعوة تحملين سيدتي حتى تكونَ لكِ كل هذه .. أ لكونكِ زاوجتِ الوجــع فيــنا بالأمل يوم سقيتِ حقولنا الجدباء حروفاً مغموسة بدمع يُتمنا فأنبتِ حُباً لا حَباً لحظة دعوتنا فيها للخروج بمسيرة تتقدميــنها دون توجس بالصفوف الأولى لمحناكِ نحن القابعين بالخلــفِ كأم كنتِ لنا فإذ بعشقنا يحيلكِ صديقة وخليلة في زمن نــدرة قَــيّم الأشياء .. وتستمر مستفسراً منها: من أين أستعير مفــرداً براقاً يفيكِ وأنتِ تملكين توهج العبارة .. بل كيف أسدد ديناً بذمتي سوى اعترافي بعجزي وإفلاسي فهل تقبلين أن أنقدكِ فراغ يدي وقلة حيلتي؟

يا سيدتي الكريمة أثناء توعكي كثيرا ما استعرت من كتابكِ تعاويــذه السحرية أتداوى ببعض أسطر وجمل منه فأشفى .. هي الحــروف نفــسها وعددها في مسبحة الأبجدية غير أن لا غيركِ يجيد نضمها فسواكِ يُولج الخيط الحبة فما الذي تفعلينه أنتِ .

سيدتي لا تتوبي فتلك خطيئة لأن الإيمان ما عاد كذلك .. عــنقكِ المطلــوب باطلاً يوم رحلتي هو الظلم عينه يوم ضاق

صدر الجزائر متقيئاً بنيه فإذ بهم يجدونكِ صبية بقارعة الغربة لحظـــة غروب ذات مساء شتائي تنشئين وطناً لكل المنفيين .. أضـــاق الوطن لحد أن يلفظ بنيه فلا يجدون برحابه لحداً؟. وإلا مـــا جـدواها أوطاننا إن لم نجد بها موضعاً يسعنا وإذا بصقيع الغــربة هو من يمنحنا دفئا أو مرقداً سرمدياً يفرشه لنا الموت بعــيدا فنــرحل حالمــين بالعودة لمسقط الرأس لِنزف إليه طي صندوق خشبي معنون للمكان الذي نعشقه حيث دوت صرختنا الأولى .. صامتين نعود كأننا فضلنا النطق بالسكوت وتلك هي بلاغة الموت المدوية سيدتي .

أيهـــا المجنون لم يفتكَ فتسألها المحرم قائلا لها: أي رحم مقــدس حملـــكِ وأحــشاء حتـــى تنجبين كل هذا .. بل تتمادى مُستعلما المكان: عن أين أتاها تلك الجليلة المخاض .. بل ماذا هــزت ســـاعتها .. من هم أقران حبوكِ المبكر كيف لم يأخذوا حمـــى العدوى منكِ .. بل أي شيطان مسَّكِ بخير وأنتِ ترفعين إحدى رجليكِ دون أن تسمي؟ أقسم أن الملاك من فعلها .

تقول لها أيضا: سيدتي هبيني إصغاء العيون وأنتِ تقرئين هــذا أترين أنها فكرة مجنونة أن ننضوي تحت تشكيل (أحلام للوجع والثقافة) فكم أضعنا يا سيدتي من عمر مديد ونور بصر

ونحن الغرقى بين الحواشي والمتون .. كم تسرب عنا سدى بعد أن لاح الهدى .

في خريف هذا العمر .. في هذا العصر .. كيف نعيد كل صـــلواتنا كـــيف نتوب .. كيف نقلع عن سابق حماقاتنا .. بل كـــيف نخلع ونغسل قذارة عباءاتنا لنصبح عراة من جديد كيوم مجيئنا الأول .. دون ذنوب كيف لنا أن نتوب؟

يـــا ســـيدتي .. بآخر العمر .. بالعتي منه والوهن .. ألا نـــستحق جيد الغذاء ونقي الماء بعد إجهاد وضيق والترنح من طـــول الطـــريق عبر سيرنا المضني جلسة على قارعة الدرب للاسترخاء فإذا بكتابكِ بكائية ومنديلاً بصيغة رثاء .

وأنت تكتبينها تبكين من؟. علام تنوحين؟. تصرخين في وجهه أن يكف ويتوقف عن ماذا؟. بل من هو؟

لا أحـــد سيدتي يتوه عن ضرع أمه حتى لو كانت عنزة جـــرباء أتبكين جدب الحقول؟. أم جفاف الضرع؟. أم عقم غيم كـــان ينـــبت الربيع يوما بالجزائر؟. فإذ به يزرع الأرض جثثا ويسقيها بغيثه بغضا أحمر اللون أسوده .

(فوضـــى ذاكـــرة السرير) ثالوث الإيمان لمحته يوما

حوزة راهب بدير في أقاصي أرض الله القاحلة .. قال عنه إنه يرتل منه لأجل أن تسقط المطر ويمسح به أحيانا وجوه اليتامى مُربتاً به هاماتهم المنكسرة فتُجبر كما إنه يداوي به عُقم النساء فيرزقن مواليد بسن اليأس والقنوط .. قال أيضاً إن قضاة قريته الصغيرة تلك كانوا يضعونه تحت أيدي الجناة فإذا بهم يعترفون بذنوبهم طالبين الصفح باكين يسألون مغفرة .

يـــا ســيدة الوجع .. أقدر جسارة المرأة لحظة المخاض وهـــي تلد جنينا من أحشائها .. فبعضهن يطلبن الله .. غيرهن يستنجدن بولي مبارك فيقدم الوليد بين تضرع ودعاء مباركا .. كـــل بنات حواء على هذه الشاكله فما الذي يلزمكِ كي تنجبين صبياً مشاكساً آخر سوى مزيد من الغوص بمياهنا الآسنة .

أيـــتها القديسة .. صغيرة كلماتكِ غير أننا نتضاءل دونها .. ثمـــة هالة بمفردها .. عبق بمعناها .. فوح بطيها .. همس بـــصمتها .. هي موعظة تتجلى أمام كفيف ويسمع نحيبها بأذنه الأصـــم فيـــرددها أخـــرس عدة مرات كأنه يستغفر بها أو يقيم صلوات " .. انتهى النص .

أيها الساحر العبارة .. أحسدها تلك الفاضلة أن نالت منك استحقاقها أغير من وفائك حيالها لأسألك ماذا أبقيت من جميل

قـــولك لأجلي .. اكتبني كي يقرؤني بثينة يا جميل .. فباغتني قـــولاً بـــأن كل الرموز تنسحب خجلا واستحياء لحظة حضور المعنـــى لأن غياب من نحب أو رحيله عنا هو ما يسطر جميل مـــشاعرنا حياله .. أما من يحلون بالقرب منا فإننا لا نملك إلا معانقتهم لحظة تموت فيها كل التعابير الناطقة أملا ألاّ أقول فيكِ شيئا عدا الصمت ذلك التعبير البليغ .. أخاف كتابتكِ فأبلغ القول ســـيدتي قِـــيل في غائب ميتٍ أو مفقودٍ أو أسفل الأرض برحم الأقبـــية .. الـــشعر مثلاً بُعِثَ في المراثي وقُبِض مدحاً .. ألا يكفـــيكِ أننـــي كنت أستنبئ الغيب عنكِ قبل اللقاء مستديناً منه طـــيفكِ الذي تراءى لي قبل أن تحلي؟ قرأته جيداً بكل تفاصيله الدقيقة حتى أحضركِ الواقع مزيحاً عني التخيل جانباً .

ـ تلـــك التـــي على ذلك الجدار والتي تسألينني عنها لمن تكون؟

ـ للمناضل (تشي) .

ـ لا تلك التي تجاورها .

ـ لي وأنا صغير .

ـ مالك تبدو مبتئساً باذخ الكآبة؟

- أتـــدرين؟ كلما نظرت إليها بتمعن ألمح فيها مسحة من حـــزن جميل .. كسوة وجع سيدتي ألبسني الرب إياها مبكراً وكأنه يعدني بشيء من المواساة المؤجلة على ما قاســيته وتخميناً مني قد تكونيهِ أنتِ فإذ بمجيئكِ يعزز يقيني بأن ثمة عدل بالسماء يفوق ظلم هذه الأرض .

كـــنتِ تـــستغربين قولي هذا وتستعذبينه لاحظت ذلك من خلال انبهاركِ بي قولاً وحضوراً والذي ارتسم فاضحاً إياكِ .. أتذكـــرين أنـــكِ سألتني مما أشكو؟ أمور حدثت لي بصغري، حـــوادث تفوق عمري الأغر .. أتعلمين فداحة أن يُسحب حمل من تحت ضرع أمه مبكرا ؟

- لا .

- إنه لا يتوقف عن الصياح مطلقاً حتى يهده الإعياء كـــنت ذلـــك الحمـــل يوماً .. للآن ألوك مرارة ما أرتُكب بحقي .

ممن؟

زوجـــات أبي وإخوتي .. لقد طلُقت الفاضلة مبكراً دون ذنب يستلزم ذلك العقاب القاسي فرجعت المسكينة بجنين يتأوه

بأحشائها أثر لطمة تلقاها ببطن أمه ممن يزعم أنه أخوه جرّاء قــذفها بقطعة معدنية فالتجأت لزوجها أعني أبي لتشكوه فعلة ابــنه الــشنيعة فما كان منه إلا أن نهرها وأهانها فانتهى بها الأمر أن تلدني ببيت أهلها .. أنا لا أدين له بشيء عدا غصتي والتي كان له الفضل بل السبق في تجرعي أكوابها مبكراً بدلا عن حنانه المفترض وبالتالي كانت إحدى الأسباب التي شكلت نفسي المعذبة .

أذكــر أن أمـــي قد حدثتني عن ليلة ميلادي بأن القابلة وهــي التـــي نَعُدها الأم الثانية .. كيف لا وهي أول يد تتلقف مجيئــنا .. أنها قد همست بأذن جدتي بأنه يُستحسن أن تخبر ابنتها التي هي أمي بعدم صلاحيتي للحياة نظرا للحالة الصحية التـــي قــدِمت عليها .. أعني بصريح العبارة أنهم نعوني لها مُسبقا وأنا القادم للحياة التو .

بعــد أن كبرت قيل لي إن النساء الحاضرات ليلتها كنّ واجمـــات ولـــم يزغردن بالمناسبة .. قيل أيضا وهم يسردون علي الحكاية أن المسكينة كانت تبكي بعد أن تلقت خبر وفاتي قبل أن أُقبض وأن جدتي تلك العجوز المباركة أفهمتها بأن لا داعـــي للبكاء كونها لا زالت صبية ويمكنها إنجاب العديد من

الأبناء .. من جملة ما قيل لي بعد ذلك حين كبرت أنني ليلتها لـــم أتذوق من ثدييها شيئا كأني كنت على علم مسبق بمأساتها فأعلنت إضرابي مبكراً تضامناً مع حالتها وما آلت إليه وأنهم أرقدونـــي علـــى طاولة آلة حياكة الملابس التي تخصها حتى الـــصباح غير أن إحداهن زغردت فجراً وكأن الموت أنجبني ثانية مع الشروق.

- يا إلهي وماذا عن إخوتك؟

- هم مثل أخوة يوسف النبي غير أنـي لسته .. ألا ترين ســيدتي أن للـــشقاء مـــذاقاً حلـــواً بأفـــواه المشردين والمظلومـــين .. أُرجـــع مـــا أنا فيه من قلق وتوجس للأحداث الجسام التي مرت بي مدينا بفضلها عليَّ في انتسابي لفئة من البشر البسطاء، أما تلك الفاضلة التي احـــتملت لكزاتـــي .. حاضنتي حتى اليوم فإنني ألمح بملامحها (الجيوكوندا) وكأن الرسام قد استلهم لوحته منها لشدة تطابق نسخته مع الأصل الذي آنس به .. أنا ســيدتي لا أنزلها منزلة امرأة أخرى غير أنني أرفعها لمقـــام العـــذراء باختلاف أن إحداهن لم تفض وتنتمي لبيت النبوة.

ثمــة جــزم لــدي يصارع شكاً بأن الأم (تريزا) تلك القديــسة المحدودبة قد مرت يوما بشارعنا قبل سفرها للهند، وإننـــي خِلــت أنها طرقت بابنا ذات مساء وأنه قد تناهى إلى ســمعي صـــوتها وهي تستعير الطيبة من أمي التي فتحت لها الباب لمداواة المجذومين هناك لأعود سيدتي وأقول وأنا المسلم يقيناً.. بأن ثمة حديث شريف يشير إلى مرتبة الأم محدداً مكان الجــنة مفــيداً بدقة التحديد بأنه يقع تحت أقدام الأمهات وكأنه ينأى بالجحيم قصياً فيضعه بعيداً تحت أقدام لآباء أو أخوة قساة غلاظ القلوب .

أنــبل الناس سيدتي أولئك الذين ينتخبون من بنات حواء زوجة وفية لتكون حبيبتهم فيعثرون في حضنها أثناء بحثهم عن الــدفء علــى شيء من عبق أمهاتهم اللائي قد فجعهم الموت فيهن فسرقهن منهم يوم غيبهن عنهم هي الحقيقة سيدتي وتكلفة الــنطق بها تجعلنا في لحظة الصدق نتخلى عما عداها لنصبح عــراة لأن كل ما نرتديه مجرد أقنعة في شكل قميص أو رداء الحــياة ســيدتي حفلــة تنكرية (كرنفال) دائم في شكل عبارة مطلية أو ابتسامة تخفي وراءها فاجعة صاحبها الذي لا يعلم بما يخبئه له القدر من فداحة .

- آسفة جدا لإثارتي الموضوع .

- لا يهم .

اســمعي جــيداً كــل ما قرأته من البداية حتى منهجك الجامعي مجرد زيف رسمي لا علاقة له بالتنوير .. هو تغييب لجيل بأكمله عن حقيقة ما يجري .. إلهاء مقصود لنشئنا حتى يــولد رخــوياً زلالي الفكر لأمر في نفس الأمير .. فيعقوب بــريء هذه المرة .. فمن من بنينا يجيب لو سألته عن أسباب النكــسة الحقيقــية .. عن خسائرنا المتتالية عن فداحة الأثمان المدفوعة عنا بالوكالة بفلسطين حتى انكسار إبائنا بالعراق .. (فهلــم جــرَّ) آداة لا تملك مكابح وبالتالي لا نعرف إلى أية هاويــة تقودنا .. كم حزين أنا سيدتي للهدم الذي أصاب بنية البشر الفكرية والثقافية .. كل ماعدا ذلك يمكن ترميمه أو بناؤه من جديد عدا الإنسان كونه اللبنة التي تشيد الوطن تلك التي لا يمكــن استيرادها من الخارج مهما دفعنا من عناد وبلاهة .. المــنهج القويم هو تأسيس لأرضية صلبة ومتينة ليقف فوقها طفــل وصبية منطلقين بعزم وإصرار صوب الغد لبناء وطن جمــيل يسع الجميع، ما عدا ذلك مجرد حشو وتلقين لا تناسب وضــاعته سمو مقام خليفة الله عقب ذلك قلتِ: إنك تتخيلينني

لحظـــتها بمـــدرج الجامعة ألقي محاضرة ما وجموع الأيادي تقاطعنـــي بالتـــصفيق حتى خلت من سحر مديحكِ أن حناجر أصحابها بحها الهتاف .

شـــكرتكِ وأنا القائل: يكفيني وجود طالبة واحدة في ذلك المدرج الفسيح تستمع إلي بإيمان يغنيني خفق فؤادها عن دوي الأيادي المرائية مع إقراري بعجزي عن منحكِ شهادة فأين لي بأختام تشهد لحامليها بالغباء أتدرين أن الحيوانات تختم أو توسم لتمييزها لا لتميزها ألا تعتقدين ذلك؟

طالـــبة واحـــدة تجيد الاستماع والمناقشة ثم الاعتراض عندما تسود الموافقة شريطة أن تعبر عند إضاءة اللون الأحمر من غير المكان المخصص للآخرين .. لا تسير علي الرصيف ولا تـــشحذ القيم الجمالية من أصباغ أو ألوان، يرتديها الفستان ليـــزداد بهـــاؤه فـــتحت المطر سيدتي دوما ما تتكشف الأقنعة والمـــساحيق المخادعة ولتسقط بعد ذلك المدرجات التي يعتليها الأغبـــياء في انتظار ورقة مختومة يُدلق بموجبها جردل قمامة علـــى رأس جيل بأكمله إلا إذا كانت البلاد في حاجة ماسة فعلاً لمثل هذا العدد الهائل من الزبالين .

نحـــوي مسرعة تعانقينني أتيتِ فأيقنت بأنك تعانين لحظة

طلــبت منـــي فيها التوقف سألتكِ من جديد: أجمعنا التمرد على الرتابة أم رفضنا للأمور المعتادة حتى سئمنا التكرار؟. أيجامل بعــضنا الأخــر؟ أم كرهنا للأشياء المحنطة غدا فيما بيننا أمر مــتفق عليه؟. لم تجيبي بل أضفتِ لكل تساؤلاتي السابقة سؤلاً وهو صمتك الذي حضر أخرساً وفاتكِ سيدتي أنني أجيد تفسير ارتعــاش الشفاه المضطربة لحظة أضع عليها حروفاً من عندي فــتغدو وكــأن النطق قد حل بها فكأنني نفخت فيها خالقاً منها جملاً تخجلين أن تقوليها فأنطقها عنكِ .

ذنبـــي الـــذي لـــم آتـــهِ عظيمة كان جرأتي التي أوقعها حـــضوركِ المفاجئ الذي أعترض سيري وكأن لا طريق آخر يمكن أن تسلكي .. يا لجنون العشاق حين تنتابهم أمراض الغيرة فيحـــسدون لحظـــة معاناتهم تلك مقعداً أو كوب ماء لمجرد أن تربعت فوقه من يعشقونها أو أنها تناولت بشفتيها رشفة من ذاك الكوب دون أن تعي هي تبعات فعلها البريء متناسية ما سوف يحدثه من جلبة .

- أتذكـــرين أننـــي قلت لكِ من أنا؟ فإذ بكِ تقولين: أيها المجنون أو قد تتوه عن نفسك فتسألني عنها؟

ســـيدتي أعرف نفسي جيداً فلدي علاقة وثيقة بها قد نمت

أزلاً كونـــنا منذ البداية افترشنا الصراحة مهدا لصبانا متوسدين المكاشـــفة .. فقد أقسمنا ألا نقول سوى الحقيقة .. إنني لا أتوه عـــنها حتى حين الثمالة .. أعني من أنا عندما تضيفينني لنفسك أو تطرحينني منها وكي أتبين ذلك لابد من النظر لحاصل الجمع أو الطرح كتلميذٍ بالمرحلة الابتدائية يعاني معضلة حسابية يوم امتحانه ولم يتبقَّ له من الوقت سوى ثوان كي يسلم ورقة إجابته فقـــدمها ككفن ميت داهم صاحبه ملك الموت بغتة فأخذ غرة لم تسعه ذكر الشهادة .

أغرقتنــــي فـــي بداهة الممكن وأنا التي لا تجيد السباحة فكيف تطلب نجاتي وأنت الأدرى مني بأن عظمة الأشياء تكمن في عمق بساطتها وتقول إنكَ تود إجابة مني؟

لن أقول من أنت إلا بعد أن أوقن من أنا أولاً .. فأنا حين لا أجـــدكَ أبحث عنكَ لأعثر فيكَ علي نفسي .. وجدت فيكَ ما فقدته لدى الآخرين ولم أسأل أحداً لعلمي أن كل الأجوبة المعدة ســـلفاً مـــزيفة وأنكَ الوحيد الذي لم يمتهن حرفة الطلاء كونكَ الجواب الصادق المقابل لتساؤلاتي التي تقع بالجهة الأخرى .

لم أتمالك نفسي حينها فأخذت يدكِ وقبلتها وقارا ألغى كل الحيوانيات الخامدة في كلينا فبدونا لمن يرقبنا من بعيد كملاكين

لم يفقها من اللذة سوى التبتل والعبادة فإذا بي ساعتها ودون أن أدري أفـك أسـرها بـل أدعوها للتمرد على قيود آن لها أن تتكسر.. خفت ضعفي فتركت لكِ الباب مواربا كأنه دعوة أتت على استحياء فتبعتني تلبينها منساقة ورائي يقودكِ تمنّع الرغبة الجموح بصمت مريب فتشدين قميصي للوراء .. أنَّى لي سيدتي ساعتها ببرهان يسند ضعفي ..؟ أين لي بعزم الأنبياء ..؟ فما أنا إلا عبد ضعيف الإيمان خائر القوى .

نعـم وأذكر جيداً كيف بكيتَ أمامي حتى رأيتك كطفل في حـضن أمـه تلـك الفاضلة التي حدثتني عنها .. كنت بريئاً مثله فعانقـتك مثلها كأم تلبسها الموقف لتمسي بلحظة ضعفها تلك خليلة .. وقتها سمعت تسارع أنفاسك عند الاحتضان كأنك عدوا من بعيد أتيت .. أذكر أنك قلتَ لي حينذاك: كيف نفترق ونحن لم نلتق بعد؟ فلتسقط البلاغة أو تنتحر عجزاً هنا لتسألني عن الوقت بعد مضي بـرهة مـنه دون أن نعـي مقدارها إن كنا تأخرنا أم لا أو أننا لم نتقابل بالأصل؟. وأنت الذي تكره الوقت المعين بنهاية .

محير أمركَ بل عجيبة أطواركَ .. أتستعجل الفراق القادم حتماً بعد حين؟. أسعفك قولكَ رداً مفاده: أخاف عليكِ من نفسي لخوفي عليها منكِ إن طال المقام بيننا هكذا حتى مضيت بالقول

أنك تتدخرني للغد ولما بعده من أيام قد تتوالى وكأن قحط السبع العجاف يلوح من بعيد فتبقيني كزاد يمنع الموت عنكَ بالقبل .

بـــين العودة بي واستبقائي شردت أنت بالمنتصف لمحتك حائـــراً كتائه بصحراء محرقة نفد زاده حتى صبره والماء فلم يجد بداً والهلاك يلوح إلا أن يعود مقتفياً ما اختطته نعلاه طاوياً ما رسمه الحذاء .

كـــنتِ أمانة في عنقي دون أن أدري بل وديعة لا يجوز التصرف فيها إلا بإذن .. عدت وقلت ممن؟. برز التساؤل هكذا فألغـــاه استفهامي الذي برز بصيغة سؤال محير مفاده من كان مـــنا وديعة لدى الآخر؟ أ طريقاً عبرتهِ كنت أنا؟. أم أن دربي أعترض خطاكِ أثناء سيركِ فتعثرتِ به حين عثوركِ عليَّ؟ كل ذلـــك راودني أثناء انسحابنا مكرهين حتى خُيل إلي حينها كأننا أُخرجنا من جنة دون معصية أو ذنب ارتكبنا .

أقـــسمتِ علي أن أتوقف عن النزف .. كان مبررك بأننا على مشارف المدينة وأن العيون قد تفضح صاحبها فتشي عمّا وراءهـــا بمجـــرد النظر إليها فيقرأ أحدهم جهراً ما اجتهدنا أن نبقيه سِراً واختلاجاً .

لم تقولي وداعاً مكتفية بقولكِ إلى اللقاء فسرته وفق معجم حاجتي بأنه مصطلح لوعد وترميز حاذق للقاء منحتيه لي وأنت الكريمة دوماً صاحبة جود وسخاء .

باليوم التالي لم يقل أحدنا للآخر جمل الصباح المعتادة عند لقاء أي اثنين .. كوننا استثناء .. مكتفين بابتسامة من كلينا أغنتنا عن الجمل التي تُلاكُ اعتياداً .. لا أدري إن كنت أنا المبادر بها ابتـــسامتي أم أنني رددتها لك بناءً علي تبكيرك بها؟ كنا سائرين باتجـــاه المقهـــى لوحدي كنت أرجو أن أجده مقفلاً أضمرت ذلك تمنـــياً بأننـــي: في غنىً عن مقعدين وسط تلصص أعين فَضُوله فالمشاعر تنسحب أو تتوارى خجلاً إن أُنجبت وسط من يراقبون مـــيلادها بقيصرية انتظارهم .. بدأتِ الاعتراف مبكراً ذلك اليوم قبل أن يبدأ تحقيقي كأنك تزيحين به ثقلاً فظيعاً لمعصية أو ذنب لابد من التخلص منها بالتوبة أمامي لحظة قلتِ :

لـــم أنم ليلة البارحة .. لم يسعفني اضطجاعي ولا تقلبي علـــي الفـــراش تحايلـــت علي النوم بشتى الوسائل هالني أنها أضافت لصحوتي اتقاداً أطفأت النور .. أغلقت النافذة الوحيدة بغرفتي .. أغمضت عينيَّ .. لم أفلح في الهرب منكَ.. انهزمت كـــل محـــاولات فراري لم يعد أمامي إلا استدعاؤك عبر تخيل

صــــورتكَ .. فاســتلقيت علـــى فراشي وعلقتها بسقف غرفتي صــــورتكَ التـــي وُفقـــت في إحضارها ليلة أنفذت حاجتي إليكَ رسولاً فأتيت صحبتها مقبوضاً عليك بتهمة حاجة عشيقة أصابها الأرق بمقتل في مخدعها فأطار نومها وصوابها .

أجلستكَ قربي .. بل فوق فراشي هذا أتدري لحظتها أنني غفــوت بفعــل أناملــك وهـــي تمسح عن جدائلي شبقها عابثاً بخـــصلاتها تـــسقي جـــذورها سحرك مرتلاً من تعاويذ كتابكَ مزاميـــر شـــوق وترانيم اختلست حضوري فتداعيت أثرها أيها المشعوذ لتسرقني الصحوة .. كان رأسي بحجركَ الدافئ لحظة غفوتـــي .. تـــراعيت لي تعبث بأشيائي الخصوصية .. فتحت حقيـــبة يـــدي ثم ألقيتها منفعلاً أما أنا فقد تملكني العجب عندما ســـألتني عـــن (الـــبوم) صوري الخاصة .. مددته لك فتلقفته بانفعـــال وحدة .. تصفحت صوري المدرسية والعائلية بحدس غيور يتسقط من فتاته زلة تدينها .. تمعنتها جيداً كنت أعلم أنك تبحث عن صورة لآخر .. خيط رفيع من الوساوس علّه يقودك إلـــيه فيدلكَ على غريم تنشد صورته كي تدينني بها وعندما لم توفـــق في العثور عليه أعدته لي مصحوباً باعتذار عن ظنونٍ راودتكَ خلال حلم بذات ليل .

كم سعدت بانهزامك أمامي بأن لا أحد سواكَ لأسجل من خلاله نصري عليك ولو عبر حلم بمساء أنهكتني فيه مقلباً إياي ذات شمال وذات اليمين .

مجهدة صحوت صباحاً .. بعد أن سردت عليكَ ما رأيت منكَ بالليلة الماضية حين التقينا فاعتذرت على ما بدر منكَ بحلم مـــستغفراً مني عمّ تكون قد أتيته معي بليلتك الصاخبة ومضيت تقودنـــي إلى المكان وكأن لا غيره يؤوينا، يسع بوحنا المدوي صمتاً فالتصقتَ بي كأنك تستعير مني دفئاً أحوج منكَ أنا إليه .. أذكـــر يومها أنه سرقكَ الاستغراق مني فقد كنتَ ساعتها تجول بعيداً أتدري أنك قلت لي:

قـــبلكِ كنت هنا منفرداً أعاقر الوحدة كخليل .. كم بحثت طويلاً عن مستمع يمنحني شيئاً من الإصغاء لأتلو عليه أفكاري القلقة .. أشكوه همي وسوء طالعي فخلصت بأنني أهمس باللغو للفـــضاء .. بحـــثت عمـــن لا يجاملنـــي فأيقنت بأن من عادة المـــستمعين بل ديدنهم إتقان الموافقة المصحوبة عادة بالانحناء فاستعضت عن مجاملتهم بقصاصات ورقٍ نفثت فيها اضطراب نفـــسي ولم أخجل من التعري أمامها مرتدياً الصدق ثوباً نازعاً عـــن المفرد خجله متغزلاً بالجمل خانقاً خصرها بتنهدي راسماً نجوى نفسي وقلقها جملاً مقطعة الأوصال والحروف.

قبل مجيئكِ كنت أبحث عن ربيع داخل صيف الاستحالة متــرقباً حضوركِ من ماضيي الأجدب كمن يأنس من صحراء عمـــره القاحلـــة نبـــتة يستظل بفيئها .. فكنتها وكأني نلت منك موعداً لم يحدده أيٌّ منا فإذا بالمقادير العجيبة تتقاذفنا حتى وصل أحدنا للآخر فلم نعلم من منا الأحد ومن هو ذاك الآخر .

أيـــتها الـــشقية سأســـقيكِ غزلاً حتى تثملي فانتشي وأنا المخمـــور الهـــائم بـــكِ حتى يترنح كلانا وقتها يكون الصحو معـــصية لا تغتفـــر حتى وإن اغتسلنا بنهر حتما سينضب ماؤه جراء عظمة الذنب المرتكب .. نعم وأذكر أنكَ ساعتها استعنت بمائك الآثم فسكبت منه شيئا في جوفك مضيفاً لي معرفة جديدة كـــنت تـــود الاعتـــراف من خلالها بشيء دون قيود أو وجل أ تـــتوارى منــــي خلـــف كأس تجيزك التلصص علي من وراء جرعات نبيذه الأحمر؟

أتنـــشد وعـــياً تستحضره من غياب أيها المترنح تيها؟. ففوجـــئت بقلـــبك للأمور كعادتك دوماً حين قلت: إن الحضور الحقيقـــي هو الذي يقبل من غياب قد نظنه غياباً فخلف الأشياء دومـــا يكمـــن نقيضها المخالف لها عادة قد لا نراه مباشرة إلا بقلب الأمور أو الانقلاب عليها مضيفا بأنه يمكن التلصص علي

الـــصورة المقابلة من خلفها ثم تناولتَ جرعة ثانية كأنك تحاول اللقاء بالهروب من جديد، لتسألني وأنت القائل:

أتخافـــين حضوري أثناء الغياب؟ أيزعجك قدومي الآخر مستطرداً تقول: إن الحقيقة دائما ما تسكن بمخيلة طفل برئ أو تعشش برأس من يعاني نوبة خبل لا يزيفها إلا إنسان عاقل قد يـــضيف إلـــيها أو يجتـــزئ منها حسب هواه هذا إن لم يطلها بالخديعة معترفاً بأن سبب ترنحكَ مرجعه ويل حضوري وأن لا ذنـــب للشراب مما أنت فيه مبرئاً ساحة زجاجتك وما آلت إليه روحـــك المحلقة ملقياً بعظيمه علي بأنني من أسكرتكَ وأفضتَ مسترسلاً تهذي سمعتك تقول:

عـــند البعث سوف أبحث عنكِ هناك سائلاً خزنة الدارين عن الثالثة والتي لم يرد ذكرها بأي كتاب .. جازماً بأنني قابعة بهـــا أنتظر قدومكَ .. أما أنتِ فمن فرط هبلكِ وقفتِ تعانقينني ضماً .. أألنساك الموقف أن للتحرش ثمناً قد يُدفع وعواقب نجهل نهاياتها؟ بل بما أشار عليكِ شيطان جنونكِ أن تأتيه ففعلتهِ مستغلة ظرف احتفائي وحبوري .. كنتِ ترتجفين لحظتها فسرى ذلك بي ناقلـــة إلي عدوى الارتعاش لألمح في عينيكِ حثّاً بل دعوة ونداء تسألين الضم ببليغ الجمل الملتاعة وصيغ الرجاء.

أيزعجكِ أن أناديكِ بخليلتي .. أم تحبذين غيره فغيركِ قد يــروقه تغيير الأسماء .. وماذا بعد غير صمت عينيكِ المحير وما به من كلام يكاد ينطقها: هل من مزيد؟

أســعير يــتقد فيكِ يا ربيعاً تلا صيف عمري؟. أفرحني حلــولكِ فاحذري مواسم البهجة القصيرة العمر فعادة ما تنتهي آجالهــا فجــأة في غفلة استعدادنا للاحتفاء بها فكوارث العشاق حبيبتــي ونكــباتهم دوماً ما تحل لحظة إيقاد شموع المناسبة .. خوفي وأنا الشقي المتوجس دوماً من خريف قد يليكِ فيأتي إلي بصيف محرقٍ من جديد .

أُنهي اعترافي بأن أنبل المواليد هم الذين قَدموا قسراً بعد مخــاض عسير أجزم تواً أنكِ خارجة منه .. أ كان قدري رحم لك دون علمي؟ لمحتكِ ساعتها تبكين وعلامات الإيمان المدهشة تعلــو جبيــنكِ كبــتول بمحراب تقوى ساعتها فقط أيقنت أنكِ اعتــنقتِ مذهبــي فتقولين جملتك المدهشة تلك بأن ثمة رسول للعشق كفرا إن لم نؤمن به .. ويمضي بكِ جنون اعترافكِ بأنكِ لا تستحقين كل هذا متسائلة عن كيفية سدادكِ لدين وتنسين بأنني أملــك اســتحقاقك كاملاً .. تمضي متسائلة أن كيف أدفع لكَ؟. أتكفيكَ لثمة قد لا تسد حاجتي؟. جازمة بأنها ستزيد من تعطشك

.. أم قبلة لا قِبلَ لكِ بالإنفكاك منها ويفضحكِ اللفظ ساعة عُراكِ فتطلبـــين بحماقـــة الأنثى كتلميذة صغيرة تمتشق حقيبة بجوفها كراس للكتابة لم يسطر به عدا اسم وعنوان لمدرسة وفصل بها تقـــتعد مــــنه درجاً .. أن أدون بضمي ما أشاء، تستحلفينني يا لجنونكِ أتبكين متسولة لحظة ضعفي فتجرئين قائلة ألبسني جسداً يــزرع الدفء بأوصالي .. ليس غريباً على نار قد يخبو لهيبها فتبرد وترتعد جنون النار طلب اصطلاء!!.

أقبل المساء قبل ميعاده أتى .. ألأننا لم نقل شيئا أو أن ما نعيـــشه يحتاج لأكثر من مساء؟. هلمي نعود فلم تتهيئي وكأنكِ تتـــشدين بالتـــشبث الـــبقاء، سحبتكِ من يدكِ فإذ بي مُنجرٌ إليكِ للـــوراء لنفترق في جوف المدينة حيث الشوارع والأزقة تبدو كأحـــشاء .. رجعت بعد أن ودعتكِ حزيناً ودخلت حجرتي جثة أضاعت روحها التي لحقتكِ مغادرة وهي لا تدري كلفة التحليق ووعورة السماء .

أقـــبل الـــيوم التالي متثاقلاً .. حضر وغبتِ .. أم تراكِ تأخـــرتِ قلتها مضمدا قلقي بأنكِ في الطريق إلي قادمة يقودكِ غنج شوق سادي يتمهل العذاب مستحلياً مذاقه فيطيله متخذا من بطء الخطى سياطاً كأنه يقيم حداً على من أبقاه الانتظار مترقباً

وهـــو قلـــق لمن قد تجيء ولا مراهناً بحدس عاشق قامر على حـــضورك فأفلسه الغياب صبره ولم يبق له بجيب إيمانه سوى أمل مفاده بأن ثمة رجاء .

أي صبح هذا لم تشرقِ فيه؟. أيحوى شمساً حقاً؟. بل بما أكنيها وهي لا تملك دفئاً أو ومضة ضياء؟. محملاً نفسي وزر أمانـــة لم تجيزني تتبع خطواتكِ من الوراء ولا حتى بهيأة تسلل لنظـــر بـــريء يتعقب من بعيد الخطى .. كيف لي وأنتِ غائبة عنـــي أن أســـتدل عليكِ في مدينة لا تملك أسماءً لشوارعها أو أرقاماً لبيوتها .. أسأل من عمّ !! .

انـــزويت منكسراً منتحلاً الأعذار شفاء لنفسي مسكناً به أوجاعهـــا والظنون بأن هناك أكثر من سبب يدعوكِ للغياب .. فقد تكونين من مرض تعاني .. كذبته بأن لدي كل أسباب الشفاء فأنـــا من خلت نفسي لكِ طبيباً فضحتني حاجتي إليكِ كدواء .. من قهري غفوت ليلتها كجريح يهذي بكِ دون اسم .. كأخرس أفقده النطق النداء .

وميض الفجر أنبأني بمقدم الصبح رأيته يتسلل من نافذتي هكـــذا بـــدا لـــي فأشرق وجهي مستبشرا بأنك في الطريق إلي مسرعة صوبي الخطى يقودك إلي عوز ولهفة اللقاء .. شممت

عطــركِ من بعيد والذي سبق قدومكِ عنكِ وشى عندما تراءى لــي مــن بعيد خيال يسلك الرويدا بتمهل عجيب تتصنع خُطاكِ تمهــل المسعى كأن انتظاري لا يعنيك أو هكذا خلته .. أزحت لــكِ مكانا جواري فالتصقتِ بي تسترجعينني بلهفة الشوق وأنا الــذي لم أغب عنكِ يوما فاعتبرته كاستغفار مذنبة تخلفت عن أداء منسكٍ .

- تقولين: كيف أنتَ؟

- في جحيم مذ غبتِ .

- أين نمضي؟

- أتعرف مكانا يجيز لي الاعتراف دون أن يسمعني أحدا؟

- إنكِ تطلبين محكمة خاصة .

- نعم على ألا يحضرها أحد سواكَ .. قاضياً ومحامياً أن تكون أنت كليهما .

- وأنتِ؟

- مــتهمة .. لا أحــد يدينني سواكَ أو بريئة لا ينطقها غيركَ، بوصولنا للمكان الذي تعودنا فيه اللقاء بادرتكِ من جديد أين بالأمس كنتِ؟

- أتــصدق أنني كنت معكَ منذ افتراقنا .. إن كنت تود محاكمــة الجــسد فقــد أذنــب أعترف بذلك ويمكنكَ القصاص منه كيفما تشاء، أما روحي التي شردت عني فأنــا من يسألك عنها .. أو تعلم أنها عادت إلي حينما إليكَ حضرت .. وجدتها تنتظر قدومي لديكَ .. التقيت بهــا عــندكَ .. لمحــتها بجــواركَ .. التــصقت بكَ لأسترجعها منك .

أنــا مــن يــسألك عنها .. أ تتساءل عن أمسٍ أين كنته وتتهمني بأنني أضعته وأنا التي أضاعت بغيابها دروساً ومناهج لا يجيد شرحها سواكَ .. ألم يكن حضوري الآن تبريراً لغياب الأمس؟. أمسك الذي تسألنيه كنت أبحث فيه عن سكينة الاختلاء بنفسي دونكَ لأمتحنها لا لاختبرك .

كم أسعدني رسوبي فارحة بالصفر الذي نلته الغريب أنه كــان يمثل لي الدرجة الممتازة كما يقولون عادة وهل ثمة أحد في هذه الدنيا يسعده الرسوب بهذا القدر من الجنون سواي .. ما قرأته في عينيكَ من ملامة ترجمتها احتياجاً إلي مؤمنة يقودني اليقــين بأن عوزي إليكَ كان أحوج من حاجتكَ بل أكثر إلحاحاً بــل إنني من فرط ابتلائي بكَ .. جئت أعودها نفسي فوجدتها

عندكَ راقدة الفراش علتها عشقك فقمت بزيارتها متفقدة ما آلت إليه أسألك لها الدواء .

سـيدي إن تـصدقي عليكَ بشيء مني هو ليس بمحض إرادتـي تلك التي سلبتني إياها قبل أن تباشر عبثك البريء .. أتـراك سألتني لأمنحك وداً يقيناً أنا وهبتكَ إياه قبل السؤال .. لابـد من الاعتراف بذلك وحدكَ الآن من يملك تصحيح أوراقي .. ألا ترى اضطرابي أمامك يعلن حقيقة تتوارى خلف احمرار وجنتي فاضحاً خجل صبية لا سابق عهد لها بمثل ما هي فيه - ـك تحدق في ملياً؟. ألم تدرسني منهجك الصاخب .. فكيف تطلـب مني هدوءاً وسكينة ساعتي هذه وأنا المحفوفة إليك جثة بـاردة كفَّن العشق حراكها؟ فأحفر لي بضمك لحداً وأنفخ بِقُبَلِكَ روحي .. أقبضها أبعث بها .

جـثوتَ على ركبتيكَ كأنكَ المذنب المدان لا صاحب حق وملامـة لمحـتك أيها الناسك تيها تقيم طقوساً بقعود كصلاة الـرومان وتعـبدهم الـصامت التلاوة بحضرة الحسان فلحقتكَ أسـألك الوقوف قائلة: إن لم تغفر لي خطيئة التغيب فلن أصفح لـك ذنب الحضور وليذهب كلانا للجحيم سوياً فما عدت راغبة بجـنة أنـت خارج أسوارها .. وإذ بالعناق يكبلنا كنت لحظتها

تلعب بقلادتي كطفل صغير يلهو بعقد أمه وأنا الصبية الغضة التي لم يشتد عودها بعد .. أيها العابث دوما فتسألني لحظة أخذني فيها الاستغراق: فيم أفكر؟. يا لغرابة أطواركَ وأنت تفكّ ربطة شعري لتتكشه مضيعاً جهدي الذي أنفقته عليه لأبدو لك كمهرة برية تطيب لك وحشيتها .. تطلبها بهذه الشاكلة تبغيها بل تشتهيها بتلك الصورة كي تلهو بها تقودكَ الرغبات لحيث أتمناك كي ألاقيكَ باستسلامي ورضوخي فتنالني بعد عدوكَ وتغنجي .

أنا الطريدة أيها المهووس التي لم تعد قادرة على مقاومة ترددك يا من أفلست تمنُّعي نفد صبري .. أرسمني كيفما تشاء حتى أروقك أيها الوحشي عشقاً فأجمل النساء لا يظهر فتنتهن إلا مزين عابث بدرجة مجنون ذاك الذي يمشط بأنامله غرتهن ولا يفوته أن يترك لمسته العبثية الأخيرة كإمضاء رسام مرهف فيسدلها فوق الحاجبين بفوضوية وتكرره سؤالك بم أفكر .

- أقول أوراقك المنثورة والإهمال الذي رتبها .

- مالها؟

- أود استعارتها منك .

- لماذا؟

ـ مجرد اطلاع .

ـ أخـــاف اســـتهجانها بعد قراءتك لها فتنعتين صاحبها بجـــنوح المـــسار أو مـــراهقة مـــا بعد النضج أعني بالتصابي .. اسمعي جيداً لابد من توضيح الفكرة .

هناك أسطر تكتب لتعبئة فراغ .. أعني ملء حيز ليس إلاَّ وكأنه دلق سخي لحبر أسود على فراغات بيضاء للإشادة بذاك السلطان أو ابنه الأمير بمناسبة جلوسه السامي على العرش وكأن الآية الكريمة نزلت بحقه ظناً منه أنه (على العرش استوى) وأن باقي الأمة عبيدٌ أو رعاي تلك السطور المعيبة أطرت بشكل جميل بصحف قبيحة، بعض ممن مدح السلطان بأبيات مُنح جراء تسبيحه ذاك عطية أو وظيفة، سيارة فارهة بهذا الشكل أو ذاك بعد أن عدد مناقب الوالي وكراماته التي لا علاقة لها بالسماء مسلسلاً انتسابه للدوحة الشريفة مدعياً الهاشمية أو العلوية وكأننا نحن الموالي أبناء العبيد والسبايا .. آه دعينا منهم فالحديث عنهم يطول لا تشغلي بالكِ .

ـ لماذا ؟

ـ أخاف تكلفة استرسالي ثم إن هذه اللحظة لا تخصهم مطلقـــاً .. ألا تكفـــيهم أعمارنا التي صادروها منا

بحجة التعبئة وما تحتاجه المرحلة؟ لا تسأليني أكثر لأن أدوات الاستفهام دائما ما تبحث عن جواب أثمانه مرتفعة .

ـ كيف أنتِ بالفلسفة؟

ـ قد أعيد السنة بسببها .

ـ أظنكِ تمزحين فهي لا تعدو كونها سوى رياضة فكرية ساحتها العقل .. أما مضمارها فهو غير محدد الأبعاد .. هي بالأصح بمثابة عدوٍ داخلي لها علاقة جد وثيقة بالفكر .. أقصد أنها تُعنى بتحليل الجزئيات داخل متاهات العقل .

ـ لم أفهم الذي تعنيه .

ـ سأضرب لك مثلاً: هناك من يظن أن العكاز يقود الكفيف في طريق ما أنتِ أحدهم .. نعم .. الحقيقة تكذب ذلك بل تفنده فتصرخ فينا قائلة: بأن الأعمى هو من يتحسس ببصيرته موضعا لعكازه .. فمن يأخذ بيد من؟ تلك مسألة يمكن إخضاعها فلسفياً إلى ما لا نهاية، بل ما قولكِ في شخص ما يتمرغ في السعادة حتى أذنيه لا ينقصه شيء .. أترينه سعيداً؟

ـ نعم .

ـ كلا .

ـ كيف؟

ـ عن نفسه يقول إنه شقي .

ـ إنه يكذب .

ـ اسمعيه أولاً: يزعم مدعياً بأنه تعيس .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه يتوق شوقاً لقليل من الشقاء .. ألا يحق له أن يتلذذ بشقاء يهرب الجميع منه عادة .

ـ إنه مجنون .

ـ لا لــيس كــذلك .. كل ذنبه أنه أقر صراحة بأنه سئم الحالة ليس إلا .

الثانــي أوصــد الأبواب على نفسه أعني أنه سجنها لمدة يومــين كاملين أغلق عليها بمحض اختياره بعد أن قذف بمفتاح الغــرفة مــن النافذة ثم خرج باليوم الثالث محطماً باب حجرته مبــررا فعلــته التــي نراها غريبة فيجيبنا: بأنه يود أن يشعر بالحرية أن يحسها فعلاً .

ألا تؤمنـــين بأن الصدق يحتاج لكذبة صغيرة نمرره من خلالهـــا لنبرهن على أنه كذلك وإلا فمن أين لنا أن نعرف أنه صدق إن لم تجاوره كذبة ولو من بعيد لتشير عليه بأنها نقيض له بمعنى أنه لابد من إضافة مقدار من الملح ولو كان قليلاً حتى نستسيغ الطعام ليغدو بعده ليس مقبولاً فقط بل محببٌ أيضاً.

بعضهم يقولون بداهة: إن السماء فوقنا، بلاهة ما يقولون لأنهم يكفرون في اللحظة عينها بالسماء التي تقع تحت أحذيتهم رغم كروية الأرض التي سبق إثباتها منذ مدة طويلة، سماء تقع أســـفل أحذيتهم تخص أناساً آخرين يمتطون الكرة من الجانب الآخـــر المقابـــل للذي يعتلونه ولا يسقطون .. ألا تشاطرينني الـــرأي بـــأن هـــناك مفاهيم تحتاج لشيء من الكفر لحين قدوم الصواب حاملاً معه الإيمان يقيناً؟

أتؤمنين أننا خلقنا لغايات نبيلة؟ غيرنا لا يرى إلا أنه خُلِق راتع ليتكاثر تباً له من مولود وإلا فما دور العقل إن لم نُميز به عـــن ذوات الأربع فالحكمة تقتضي دوما منا أن نقول ما نعتقد لا أن نعتقد ما نقول أي بإدراكنا لأسباب وجودنا الحقيقية نسمو بعقولنا فترفعنا هي لأعلى بما تسقطه عنا من حيوانية الجسد .. نؤجلها أو نسكنها لحين ولكن لابد من الرجوع إليها يوما لأننا لا

ننتمـــي لفــصيل الملائكة الأطهار فنحن لسنا سوى معشر من البشر تقطن آدميته بين ترنح وانزلاق إنما نطمح في مغفرة ما.. ســيدتي أتعبني القول كيف لم يضنكِ الإصغاء .. اصدقيني أما قلته حقيقة أم وهم وهراء؟

وبكيتِ من جديد كأنكِ لم تذرفي قبلها وأقبلتِ تقبلين يدي التـــي ابــتلت بدمعكِ أو بلعابكِ أو بكليهما معا أتدرين ما قلتِ ساعتها: لقد سجلت عظتك أحتاجها لتأتيني بكَ عندما لا تكونين معـــي .. لأنام عليها .. لأسكّن بها وجعي في الليالي الموحشة البرودة مستمدة من صوتكَ دفئاً أتلحف به عند ارتعاشي متدثرة جميل قولكَ .

أيــتها الــشقية أخاف أن تعرضيني على غيركِ فيعلم بما بيننا سواكِ إن فعلتِ ذلك قد يذاع سرنا فننفضح .. سنغدو كعلكة بالأفـــواه .. كيف لكِ أن تعرضي رجلاً يرتدي لباس البحر في مجتمعنا هذا وأين بعيداً عن الشاطئ لاشك أن التباهي قد أعماكِ ألا تخافين من أن أسرق من غيركِ من إحدى الأخريات التي قد تنــتحل الإعجاب زياً قد لا ينجح في ستر عُريها؟ استودعي ما بيننا السر ولا تنسي أن تكمميه بالكتمان فقد يغادر أحدنا الآخر بوشاية صغيرة قد تبدو في صورة إعجاب بريء.

إن جلــوس أي اثنين على كرسي الاعتراف بأي كنيسة أمام راهب ما يعني أنهما ينشدان الفضيحة بشكل علني فيضيفان لذنــبهما مشاهدًا لم يكن حاضراً أوان ارتكابهما المعصية فمنذ مــدة ونحن نخبئ شيئاً ما بيننا .. نخفيه بقصد منا عن الجميع فكــيف لنا أن نُفْصِحَ عنه للآخرين جهراً بينما إن تمعناها جيدًا تلــك التـــي يــزعم المجتمع بل يصر على أنها خطيئة ستبرئنا باحتسابها علاقة وجد جد بريئة أما كونها محظورة فلأنها نبتت وترعرعت بأرض مجتمع مسيج بالشرقيات التليدة .

كـــان هــناك إصرار منكِ يحثني على موافقتك التصابي والدخول في لعبة المراهقة فأوافقك عليها .. تباهي كما تشائين ولا تنسي أن تضعي حارسا على أسواري فقد أُسرق أو أخطف فأغــيب عــنكِ فكـــم من رجل سرقته امرأة ثانية من صاحبته الأولى التي أضناها البحث عنه حتى وفقت في العثور عليه بعد جهــد وعناء الأمر الذي كلفها سنيناً وليالي من أرقٍ وهي تبني صحبته حلمها بشكل بيت صغير تحوطه أزهار سقتها من دمع انـــتظارها أنهاراً وحين أزف ربيع حقلها الاكتمال أحرقته من كانت تزورها بنية المباركة لتبقى المسكينة محطمة كسقط متاع لأن الأشياء التي تحمل لنا قيمة حين نعرضها على الملأ نفقدها

بـــريقها والتوهج الذي تحمله .. نضيعها ولا نفطن لحماقتنا تلك إلا ساعة ارتدائنا الأسود لننعيها ببليغ الجمل مرثية كئيبة .

قابلتكِ في اليوم التالي .. كان هناك شيئا تحملينه تجاهلته متــصنعاً عدم رؤيته .. كان بحوزتكِ أكثر من مفاجأة فانفرط عقد لسانكِ قولاً: بأنكِ انتقيتِ لي قميصاً وحذاء .. وجملة أشياء أخـــرى قد تكملني حتى أبدو كما تودين أن أكون ثم قدمتِ لي عطرا نفاذا يحمل بعبقه دعوة مجنونة وأنت تقولين: أنت مدعو غـــداً فقـــد حجزت مقعدين في حفل لمطرب ما استغربت ذلك منك كوننا لم نتفق على الأمر أصلاً ولأنني لم أشأ إحداث جرح بـــكِ جـــراء رفضي دعوتكِ وافقتكِ النزوة أجزت لكِ تصرفكِ ليصبح عرضكِ إما أمراً أو طلباً في صيغة إملاء .

أتذكرين؟ حين أزف موعد الحفل لم نتوجه معاً كأي أثنين وكأنـــنا غير أسوياء !! .. بل افترقنا قبل دخولنا المكان كأن لا ثمـــة علاقة تجمعنا ولا موعد بيننا .. تحاشى كل منا الآخر .. دخلت أنا أولاً وجلست أترقب حضوركِ تالياً حضوري بفاصل قيمته عدة دقائق وبرهة من ثوانٍ .. حينَ زمنٍ وظفناه فأذريناه بوجوههم .. بذرناه ونحن نرتل سراً الآية المباركة حتى وصلنا قـــوله تعالى: ﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾، ففضول العيون لا

تـــرحم عـــندما يلـــتحق الــــرجل بالمرأة ليقتعد جوارها ركناً وتتغاضى العيون نفسها حتى التعامي عندما تليه هي جلوسا .. لقـــد ســـرقنا سيدتي من الشرق الغبي أمراضه وتداوينا بها .. الغريب أننا شُفينا !! .

بـــرهة إلا وأتت إحداهن تصافحكِ فقلت لها: من محاسن المـــصادفات أن يلتقـــي الأصـــدقاء وسط مكان جميل كهذا .. تقدمينني لها بقولكِ إليكِ الأستاذ اختياري غير المعلن .. جلسنا ســـويا .. تجاذبنا أطراف حديث ممل لا أدرى إن كان قد صُنع تـــواً لأجـــل المناسبة أو دُبر من قبل .. فإذا بها تتبرئ مشيدة باختياركِ مشيرة نحوي بأنه موفق مفيضة بأنكِ أحسنتِ الاختيار لحـــد التوفيق .. أعجبها قميصي ووداعتي البادية مشيدة بذوقي فـــي اختـــيار الحـــذاء والذي قالت عنه: أنه مناسب جدا للون القميص الذي أرتديه وينم عن ذوق رفيع في الانتقاء .

تميـــزت غيظا وتذكرتها جهنم التي أبوابها شُرِّعت فقلت محـــتداً: أيـــتها الفاضلة ألف حذاء قد ترين كل صباح غير أن الـــندرة دائماً تكمن في الخطى .. قلت لها ذلك خاتما قولي لها بأننـــي أكـــره تـــسطيح الفكرة لحد التساوي مع الغباء .. ساعة ســـماجتها تلـــك خلت نفسي بأنني مُستضاف في مخفر للشرطة

وكأن الذي يقابلني (جاويش) ينتحل زي النساء وأن المطرب الذي يصدح من بعيد هناك إن هو إلا مخبر مكلف بمهام مغلفة بالغناء كي تكتمل اللعبة فأبوح وسط جوقته بالتراتيل الذاتية تلك الصورة البشعة عشتها مع صديقتكِ فلم أجد بُداً من انسحابي إلا بتصنع عذر انتحلته مدعيا استنشاق الهواء متسللا خارج المكان الخانق وإذ بكِ تلحقين بي قائلة: ما الذي حدث وجرى .

سيدتي أخاف أن تطلبي مني في المرة التالية إن تكررت المناسبة الاستحمام والحلاقة أو إضافة بعض الرتوش والأصباغ لأبدو كما تودين أن أكون أمام أخرى كي تتباهي، ألا تخافين لعبتك فأروقها؟. أؤكد لك بل أجزم قاطعاً أن خبلاً يقودكِ فالذي لا تعرفينه هو: أن الفحولة لم تخلق للفرجة هي كسيف يسحب من غمده في ساحات الوغى !! لا مزاح مع رجل قد يعاني احتضاراً تعودينه يضمكِ فيشفى .. أو كفيفاً تضنينه يشتمك فيرى.

ألا تعلمين أن الديوك قد خلقت للأذان جميعها غير أن هناك من تجيد العراك أكثر مما خلقت لأجله فكأنها بعثت للقتال دون سواه .. ثمة نوع آخر يمتاز بألوانه الزاهية يمكن الفرجة عليه كأنه خلق لها فقط .. تتأسفين سمعتك وأنتِ تقسمين راجية

غفرانـــي بأغلظ الأيمان وفاتكِ أن كيف لأنثى أن تطلب الصفح مـــن رجــل عـــن ذنب اقترفته بحقه في شارع ساعة ضحى؟. يـــستحيل ســـيدتي أن تتاليه إلا بخلوة اثنين لا ثالث لهما .. قد تمنحين الصفح خلالها دون طلب أو رجاء فتتاليه تدوينا بالشفاه علـــى كـــراس جبينكِ الوضاء .. فكفارة ذنب الحبيبة قبلة على خدها لا حنطة بمدٍ قد لا تسد رمق جائع متيم يتلظى .

انكفـــأ يـــوم وحملكِ ثانيه إلي .. اجتمعنا فيه كما يلتئم الفـــرقاء كان ثمة ملامة تحوم حولنا أو فلنقل بيننا .. مسحة مـــن الحـــزن توشحناها، لبسناها كرداء .. كلانا يأمل الآخر الاعـــتذار.. غير أن كلا منا كان مستعدا لقبول العذر ومنح الصفح للآخر إن تقدم به باشتراط أن يكون البادئ ليليه وأنت المـــبادرة دومـــا فاقتـــرحتِ أن نجلس بجوار الشاطئ حين وصـــولنا إلـــيه وجدناه فسيحاً وعميقاً فاعتلينا صخرة كبيرة تشرف على روعة المكان.

أجلـــستكِ بقربـــي ورحلت عنكِ من فرط فرحتي سابحاً بملكـــوت الخالـــق متجاوزاً الأفق غير مؤمن بانطباقه تاركاً ما ورائـــي للوراء مستودعا أماكنها الأشياء .. ثم عدت إليكِ من هـــناك فـــوجدتُ أنكِ لا زلتِ هنا، حدث ذلك بلحظة ابتلعت في

جوفها عدة دقائق كنتِ بانتظار عودتي أذكر أنكِ رحبتِ بسلامة وصولي وأنت تقولين:

- أين كُنتَ؟

- إنني أستطلع رحابة الكون من ضيق المكان !! .

- ألا يكفيك هذا الشاطئ حتى تسبح بآخر لتغوص باستغراقك في قاعه، عمّ تبحث أيها الملاح المشرد؟. ألا تكفيك ضفتي الآمنة ومرفأ لتجول متسكعاً في خضم خيالاتك؟. ألا تخشى الهلاك غرقاً وأنت دائم الإبحار؟. فترد علي بأن من يستقل الرحيل مؤمنا بقدرية مصيره كزورق لا يخشى الموت غرقاً .. دعيني أمخر فشراعي وإن كان ممزقاً فثمة نسيم قدري يدفع به نحو غيب كلحدٍ طافٍ ألمحه محفوفاً على أكتاف الماء.

- فيما استغراقك؟

- خطر ببالي نص نشرته بإحدى الصحف المحلية تحت عنوان (الذي مخر بتابوت) لقد أحدث دوياً يومها .. الغريب أنني لم أنل عنه حتى كلمة شكر أسوة بباقي مقالاتي .. ما يعزيني فعلا إعجاب القراء وإطراؤهم الجميل .

ـ أتحفظ منه شيئا ؟

ـ ثمة نسخة منه بالحقيبة .

ـ أيمكنك قراءته علي ؟

أقــول: « من أسمالك البالية وثيابك المرقعة خِطْ شراعاً مــن ســقط متاعك وقديمه أصنع جناحين وحلق كطير .. أنفث وجعــاً .. أزفــره يرفعك رويدا أيها الشقي لك السماء الرحيبة برمتها فكون الله أطرافه لا تحد .. دع نعلك بمكانه لمشرد يأتي حافــيا من بعدك فما عاد يلزم . . تأبط بصدرك حلما مفاده بأن الغد وديعة برحم الغيب .. أترى ذاك الربان الذي كسر ساريته تلاطــم القهر؟. أتدري الذي صنعه؟. لقد رسم بإيمانه جزيرة.. أنبــتها بعــرض البحر ثم ألقى رواسيه على ضفتها وترجل .. مستلقيا بات ليلته الأولى أسفل سنديانة وتنهد ملء رئتيه .. عبأ صــدره مغتــسلا بطهــر الهواء فرأى بمنامه أنه ينشر أشجار الصنوبر صانعاً منها كوخاً وأنه أسقفه من أعواد القصب البري بعد أن شدها بما ظفره من سعف النخيل المجاور .

أيها البائس أغمض عينيك وسَلِ الحلم أن يطحن حنطته لتعجــنها سيدة الجزيرة تلك الجنية السمراء .. مُرها بِوقد نار تحت الرغيف ثم هبه لعابر سبيل .. يتيم أو متسول .. أجلسها

قبالتك .. أروِ لها ما يفعل التضور بجائع .. أحكِ لها عما قبل الإبحار و أوان المخر .. عن العمق السحيق عن الدوار الذي أصاب محاراً فتقيأ بقوقعته .. عما دار بينك والنورس حين أشار عليك بجناحيه أن أنحو من هنا .. أحك لها عن ألواح الزورق القديمة وهي تئن فوق ظهر الردى .. عن السوس الذي نخر أعواده .. عن الأنواء التي صفعت شراعه بشدة فأحدثت به فجوة .. عن قصة الساري الذي تحطم وأنك لم تجد ما تجبره به سوى ثوبكَ الذي نزعته عن جسدك العاري فارتجفت .. عن السمكة التي قذفتها موجة لتموت فوق رمال الشاطئ غرقا .. عن الماء الذي نفد فجأة من الوعاء فإذ بالسماء تدمع قبل أن يشبَّ بجوفك الحريق .. أخطو بساعدك وجدف فالبحر أيضا طريق .

أيها الشارد تيها أجعل من عزمك طوقا فما عاد سواه يفي بالوصول لمرفأ يلوح من بعيد .. قل أنك لن تموت فتحيا بقدر ما تردد العبارة بذلك تسرق من عمر الموت برهة تضيفها لرصيد عمرك القصير .. بقدرها يطول فالهلاك يا صديقي يسكن بين أن تخر وتهن وإلا لما خلقت النوارس إن لم تزف البشرى لمن هم على وشك الغرق بأن ثمة شاطئ يلوح من وراء البعد السحيق .

جدف يا صديقي وأتلو بسرك .. قِر بأنك المعجزة المبهرة التي أبدعها الله فلا تبخسها .. ولأنك يد لعمران خرائب الموت فشده عالمك كن بناءا .. صرّ على أنك هو .. بل أنت من جزم علـــيه ربـــه قائلاً لمن شككوا فيه من الملائكة: ﴿إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة آية (30).

أيهـــا المعذب نصك ينوح ألمح حروفه وهي تشق جيوبها تلطـــم الخدود .. تتأوه وجعاً .. تندب مآل المظلومين تشاركهم فاجعـــتهم بالنعي الأخرس الكئيب أقسم أنك يوم كتبته استعرت مـــداده مـــن عين يتيمٍ غائرة سؤال أخير حدائقك الغناء من أين تستمطر غيث إنباتها .

مـــن شـــآبيب غصتي .. من عشقي للبحر الذي يبدو لي كدعـــوة ملحة لا يمكن تأجيلها .. من لوعة صبي أحترق قنديله الورقـــي فانطفأت فرحته بالليلة المباركة .. من رحيل أم فجأة دون وداع .. من بكاء أنجبه التذكر بخريف العمر .

ألـــتقط فتات حكاياي من معاش البسطاء بالزقاق المترب منحنـــياً عـــند النواصي والحفر ملتقطاً الملتاعة منها .. أتدرين أنني دائماً ما أجتر صباي باحثاً فيه عن علاج علني أجد فيه ما يواســـني عن علل السنين وتقدم العمر أخاف صقيع الغد عوزاً

أعانـــي مُنقباً فيما مضى مُلملماً ما انفرط من أيامي مجملاً بها الـــرتيب الذي أحياه حتى يغدو مقبولاً وكأن هضم هذه الأيام لا يتم إلا باستدعاء مقبل من الأمس .

سيدتي دائماً ما ألوكها طفولتي لحظة جوعي .. كثيرا ما أعـــارك قلقـــي الآنـــي باستحضار ما تولى شاحذا النصرة من الطفولة واليفاعة كعكاز أسند عليه هامتي عند منحنى العمر .. أعهـــده كسيف فأستله بوجه ما ألمَّ فآلم .. تلك هي ضفتي التي أســـبح إلـــيها، طوقي الذي أطفو به وعليه سابحاً لضفة تنتظر الجمـــيع ولا يعلـــم أحد زمن وصوله إليها عزائي الوحيد أمس طفولتـــي الذي أقاوم به شحوب ما قدر لي أن أعيشه من عمر حتى غدا .

ـ إنك غريب حقا لما لا تدون أحاسيسك هذه بكتاب؟

لأنهـــا أحاسيس فهي لا تدون كالشعر مثلا: لن يكونه إلا بالإلقاء فقراءته وكتابته يسرقانه الوميض .. يغدو باهتا كأن لا شـــمس فيه .. تخبو كل الأشياء عندما تدون فتبدو كنقش لحدث وقـــع غابـــراً .. يغدو مثل أصداء لمعارك فينيقية مثبتة بكتب التاريخ جملاً وحروفاً .. مجرد أصداء أبجدية لمعارك يعوزها صـــهيل خـــيل وأنين جرحى .. معارك صامته ساحاتها باردة

الوطيس كُتِبت على صفحات ورق مهترءٍ أو دُونت على حجر أثري وُجِدَ ملقى به في أرض فضاء .

تسوقني الظنون فأتخيل أنني أحمل ما يحمله أهل الكهف مـــن نقـــود دائم التساؤل: هل تم تغيير العملة حتى غدا ما في جيبي منها مزوراً لا يجيزني حتى شراء رغيف خبزٍ متيبس .. كـــم لعنت الجوع مراراً كونه عدواً جباناً لا ينازل إلا الشريف ذاك الـــذي يقضي صائماً مسطراً موقفاً بزمن النهم .. ذات ليلة بِتُ أفكر في عوز البعض وغنى الآخرين البعض قلة كالشرفاء بالـــضرورة .. الآخرون كُثر بطون متدلية .. كروش منفوخة وأشداق متهدلة كونهم باعوا .. سمسروا .. كنت أجري مقارنة مـــضنية بين أولئك وهؤلاء خلصت لعلة الاثنين فثمة من يسعى علـــى رجلـــيه مـــستقلاً ترفه المتواضع بركوب حافلة عمومية والـــذي يـــستقل يختاً بالشارع أجهدت عقلي كثيراً بعدها نمت فرأيت فيما يرى النائم أنني أتصدق بنقود أهل الكهف تلك على مُعدمٍ لأشتري بها من عند الله حسنة .. بائس منزوٍ بركن الفاقة والـــذي رفـــض أن يتناولها مني .. أعادها إلي وهو يقول: لا يمكنني الدعاء لك بها!!.

ـ لماذا؟

- لقد سقطت بالتقادم .

عـــندما لاحـــظ انكساري بالحلم مد يده لجيبه مُخرجاً ما تيسر راجياً مني أن أدعو له عند ربي معللاً بأن المعذب مجاب ثم انزاح من مكانه قائلاً إنني أجدر بهذا المكان منه مشيراً علي بإمكــان إيداع عملتي التي أحمل متاحف التاريخ حيث تعرض الأسمال والأشياء القديمة التي تشير للغابر وما تولى .

- عم تتكلم قلت له ؟

- المبادئ والثوابت وكل المثل .

- إنهـــا لـــن تـــسقط بعد .. فأعتذر متبرعا لي بنصيحة مفادها: أن العملة الحقيقية في سوق مزورة تكلف من يحملهـــا ثمـــناً باهظاً قد يفوق قيمتها طالباً مني بنهاية حديثه التخلص منها بإلقائها في البحر .

- لما البحر تحديدا ؟

- لأنه الوحيد الذي لم يشِ بما في قراره من قرار !!

أتراه كان يعني الرحيل أو الكف عن الهذيان؟

مـــا قـــولكِ يا عزيزتي في أن أمهركِ بها .. إن قبلتِ ذلك

فإننـــي أدعوكِ لوليمة الجياع الغنية بالعفاف فما أعذب أن يغمس المرء لقمة يابسة بإدام الكفاف ويشكر الله عن جوع أنعم به عليه فأغناه عن شبعٍ مُمَرِغ قد يله مغص لا يمكن التخلص منه بالتقيؤ.

يا صغيرتي أنني أقطن برجاء الأمل دائم الاحتياج لأنيس أعـــارك بـــه وحدتي .. فأين لي بمثلكِ سواكِ يشاركني الإقامة والجـــوار أبثه نجواي أناصفه الحوار .. أين لي بغيري يعاني الاضطراب فتتوعده / هواجس التوقع / بما لا يتأمله ولا يفاجأ .. يجـــيد الاســـتدارة للـــوراء أثناء السير للإمام .. يتقن فن المراوحة عند ازدحام المسير دون أن ينكفئ أو يتعثر .. يعيش معـــي طفولتي من جديد فأشاطره عبثي البريء .. يدعك فروة رأسي كسابق العهد وينبهني عندما تنسى الذاكرة سرد مشوارها القديم من جديد ذاك الذي سلكته أمساً ساحباً الأحداث من سنين ولت مستعيداً مواضع الأمكنة وحبو البدايات قائلاً أ تذكر ؟!:

فـــيما مضى كان بيت متواضع يربض هنا .. بيت حلت محلـــه تلك البناية كان يسكنه سيدي فلان وعمتي فلانة وابنهم المـــشاكس مثلـــنا فلان .. آه نعم .. نعم تذكرتها رسائل الحب المتصابية التي كنت أكتبها لأبنتهم فلانة تلك المكاتيب العشقية المفعمـــة بالمـــشاعر البكر المزدانة بالأخطاء الإملائية أذكرها

الآن وأنا أضحك من نفسي بأنني كم من صفحات عديدة مزعت عــن كراسي لأحملها نقل اضطراب عواطفي التي لم تستوِ بعد لدرجة أنني بالكاد لم أبق منه إلا عدة وريقات يتيمة طي غلافه الخارجـــي .. أذكر من فرط براعتي أنني كنت أرشها بما توفر لدي من عطر أمي النسائي ولم أفطن لحماقتي تلك إلا مؤخراً .. كـــم رســمت من قلوب مطعونة بسهام كيوبيد ولا أنسى فأذيلها رســائلي تلــك باسم حركي مشفراً اسمي فقد كان يُنظر يومها للعشق وكأنه عار وفضيحة تخشى دويه الأسر المحافظة !! .. أذكـــر أنـــه رغم حرصي الشديد فقد افتضح أمرنا لوالدها الذي أكتــشف القــصة بناء على وشاية صبي كان قد أخسرته إحدى ألعــاب الصبا فكاد لي ووشى عن علاقتي بها ومنذ تلك الحادثة حرمت الكتابة لأنثى تقطن شرقاً .

وكأن كل ما سبق لا يعنيك من أمره شيءٌ إلا هي .

- من هي؟

- إحــداهن قد تكون تزوجت منذ زمن بعيد واستدركت مــضيفاً كلمـــة (جــداً) وأن كلاًّ سار في طريق .. ســألتني اسمها ولم تكتفي فإذا بكِ تنشدين وصفاً دقيقاً لهــا، طول شعرها، ولون عينيها .. عن عمرها سألتِ

مستفســرة مني عن جسدها خصرها، تفاصيل أنوثتها الدقــيقة، كــنتِ تــرغبين تجسيدها تودين رؤيتها عن قرب.. يقيناً ترغبين بعثها لعراكها .

دعــكِ مــنها فقد تكون ماتت لم لا؟. أرديتها لأنهي بذلك جــنونكِ ففوجئت بقولكِ: أتزور قبرها؟. أيعتريكَ الخشوع أمام لحــدها؟. أتقــرأ علــيها شيئاً من الكتاب تسترحم به لها خاتما دعاءكَ بالفاتحة؟. أم تراكَ سقيت بانتحابكَ صبارة أنبتها وفاؤك أمــام شــاهد لحدها وأنك بذكراها السنوية تبتاع لها إكليلاً من الأزهار يليق بفداحة فقدها؟

لا .. لا لــم تمت أيها المجنونة .. قلت لكِ قد تكون فقط لأرحل بها بعيدا عنكِ حتى لا تشتعل بيننا معركة نحن صرعاها فيسقط أحدنا مضرجاً بأسباب ظنية .

ـ إذاً لا زالت حية؟

ـ لا أستطيع الجزم بذلك .

ـ هي كذلك .. لأنكَ لازلت محتفظاً بذكراها .

ـ أنتِ من أحضرتها بنقاشكِ هذا .

ـ أخبرني عنها .

ـ لماذا؟

ـ لتحدثنـــي عــنك .. لأعرفك من خلالها .. أدري أنني وصـــلتك متأخرة فقد سبقتني هي إليك بَقدر من الزمن الجمـيل الذي أتحسر عليه لأنّي لم أصحبك فيه يومها نادمـــة على لقاءات كانت ستتم بيننا أجّلها القدر لنلتقي وفــق مشيئته متيحاً للمصادفة وحدها أن تضرب فيما بيننا موعداً فتختار العام والشهر واليوم لتنتقي بدقة جد متناهــية تلــك اللحظة الجميلة فأعثر عليك طيها تلك اللحظـــة الحبلى التي أنجبتك أمامي زغرد فيها الكون لأجلــنا .. أ تذكر لوح الزجاج الذي التقينا عنده يوما؟ فقط منذ ذلك عرفتكَ حدث يمكننا أن نؤرخ بدءًا منه .. ما قبله هو ما أود معرفته .

يـــا شـــقية أنكِ تحفرين بما سلف غافلة لا تدرين عاقبة الأمر وكلفته وأنكِ بذلك مقبلة على إحداث جرح بعلاقتنا قد لا تتمكنـــين من إيقاف نزفه وأنتِ تنكشين بطيات أيام قد طواها الـــزمن باحثة فيها عم سلف وغاب عنكِ .. أخاف أن تحدثي بوفائـــي جرحاً فكيف لكِ بعدها أن تضمديه وأنتِ تفكين عنه عصابته بأسئلتكِ الحمقى .

- لا يهم .

لأنه ماضيّ فهو ملكي أعيشه مناصفة مع الذين شاركوني طفولتي أو صباي المبكر أما مراهقتي فلا تخلو من مشاعر ود قـــد أكون وهبتها لمن تصورت أنها تستحقها يومها .. تسألينني أن أحكـــي لكِ مشاويري وبداياتي أخافكِ بعدها أن تتهميني من خلال سبرها فتستخلصي منها عناصراً تدين مشاعر أقل ما يقال حيالها أنها بريئة بل محض إنسانية؟

لكِ اليوم باتساعه .. أما الغد فهو برحم المستقبل لا يمكن التنـــبؤ بـــه فقد نعيشه سوياً أو يودع كل منا الآخر خلاله وقد يغيب أحدنا بدهاليزه دون وداع فيبحث عنه الآخر لا ليودعه بل ليعانقه مشبوقاً بلهفة كاد انتظاره له أن يذهب بما تبقى من عقله فـــيقول ســـاعتها لرفيقه: أين كنتَ؟ لقد بحثت عنكَ طويلا ولم أجـــدك فيروي كلاهما للآخر ما حل به مجتراً فترة الغياب بلذة عجيبة .. سادية تحمل من المذاق أحلاه .

تلـــك التي تسألين عنها ألا تؤمنين بأن تكوني في مكانها يوما عندما تعبث المقادير بمصائر العشاق؟. إن قّدر للأمر من وقـــوع فتأكدي أنني سأمر على ذكر اسمكِ واقفاً أمام ذكره بما

يستحق من إجلال بل سأطرق خشوعا أمام ما كان بيننا من ودٍ يوماً حتى وإن كان بهيأة صروح متهاوية أو بقايا أطلال .

عندما يحدث ذلك يوما ألا يحق لي استدعاؤك لحظة قدوم آخـــر قد يلبسه القدر القاسي محبساً بإصبعه مدوناً داخله حرفي أســـميكما وتاريخاً بجواره يمثل كارثة زمنية تحد من لقائنا أو تبعثـــرنا احتـــساباً مـــنه فتلغـــيه ليـــصبح مجرد اللقاء بك من المحرمات الكبرى .

إن كـــان يراودك الشك فيما أتصور بأنه قد يحدث يوما وتلك هي دوما اللعبة المفضلة للأقدار حيال العاشقين التعساء فباليقـــين أقر بأنني سأستميت دفاعاً عن ذكرانا حتى وإن كنتِ ســـاعتها بين يديه .. تلك اللحظة الذكرى نتناصفها سوياً لأنها تخصنا أعيش بما لديَّ منها معكِ وأنتِ صحبته فهل تعيشينها معـــي وأنـــا مع سواكِ ؟. قد تطوقنا الأقدار ظلما وتحاصرنا فـــنواجه بحـــرب اجتماعية لا قبل لنا بخوضها .. قد نتراجع ولكننا لا ننسحب أمام مجتمع يقود جيشاً من العادات والتقاليد رغـــم معرفتنا لما تفضي إليه الأمور .. لا نستسلم لأننا نملك الحلـــم ذلك السلاح السري المكافي لما قد يحشدوه من وسائل مادية أو عائلية .

الحلم سيدتي هو الذي يراهن عليه المنكوبون أمثالنا، ألا يجيــرنا ســلاحنا الخفــي هذا أن يستدعي كل منا الآخر خلسة لحظة احتفالهم بوأد أحلامنا فنتعانق محتفين بمناسبة هي أصدق من فوزهم ذاك الذي يتجرعون أنخابه ؟

ألا يحق لي الاستنجاد بك متى وكيفما أشاء واستجداؤكِ المكــوث والــبقاء ولو عبر التخيل بصيغة حلم بأنكِ صحبتي وأنــتِ معه تحايلا مني على معاناتي مختلسا طيفكِ معاركاً به أرقــي فأظفر بإغفاءة أو إغماضه جفن وبعدها لكِ أن تعودي إليه؟ أ يعد ذلك انتهاك؟. أ يستلزم الحلم بكِ واختلائي بكِ ذات مساء حداً أو قصاصاً؟. بل من له بإدانة مشاعر قد نعيشها أو نــشتريها من حلم أو قد يتبرع لنا بها هو دون أن يسألنا الثمن كأنه يعزينا مجانا لعلمه بفقرنا المدقع واحتياجنا لبسمة نفرد بها تجاعــيد قنوطنا فيربت بها علينا ذات أرق أو إجهاشة بكاء .. قاطعــتِ استرســالي وأنت تقولين لن يحدث هذا أبدا .. ليس هناك آخر .

أيها المحموم عشقاً (تقولين) وأنتِ تضعين خدكِ الندي علــى كتفــي كيف لكَ أن تصنع له ذراعين وهو لم يخلق بعد ويسوقكَ التمادي فتلبسه محبساً بإصبعه وهو لا يملك اليد لتلقي

بـــي بعدئذ في أحضانه أيها التعيس أ تحاول خلق آخر من عدم الوجود باعثا فيه الروح من جنونك بقصد اختبار وفائي؟

أعترف لك صراحة بأنني كم من رجلٍ رقته .. كم منهم حـــاول التعرف علي ففشل لعدم اكتراثي به .. جيران يقطنون بالجــوار أو زملاء في الجامعة كل له عيب يظنه ميزة تبرزه فيتحلـــى به يوحدهم الطمع في ابتسامة مني أو حديث كم تمنى وود أن أشـــاطره إياه.. كل له أسلوبه الخاص في طرح شباكه المهتـــرئة فـــي طريقي، بعضهم ينتحل صفة الإعجاب ليس إلا وكأن لا شيء يختبئ خلفها سوى البراءة .. كنت أعي ذلك جيدا .. الآخـــر يشيد بطلّتي كأن لا أنثى سواي لأصبح الوحيدة في عالمـــه الذكـــوري .. ثمة من يتباهى بمكانتي العائلية باحترام مفـــرط وكـــأن باقـــي العائلات أنعدم منها وانتفى الخلق الكريم أخطـــرهم هـــذا الـــصنف الذي يتمادى أكثر من غيره آخرون يـــرتدون المـــزركش الفضفاض .. من يبصقون على شعورهم بدهون لامعة وأصباغ صنعت للنساء أو ما في حكمهن رخاميي الملمـــس ناعمـــي الأطـــراف أولئك المتعطرون الذين ينزعون الشعر عن ذقونهم بأدوات جعلت للنساء حكرا من فاقوا الحرباء تلوناً .. أما أنت فلم أرى فيكَ أياً من ذلك .

يا سيدي أنت من وهبتني وداً بأمان فمنحتك طوعاً ما لم تطلبه مني أجلستني بقربك متأبطاً خصري فكنت لي أكثر أماناً مـــن ملابـــسي التي وشت عني للعيون المسعورة التي برز من طول تحديقها بي أظافر وأنياب فإذا بالعواء يصدر عنها .

شـــدني إلـــيكَ بـــساطة لباســـك وشعرك التلقائي المنثور بعفوية.. قيدني هول كونكَ هكذا .. أيها الساحر بتعاويذ العبارة بهمسكَ اكتشفت نفسي بأنني صبية تّشتهى فشد وثاقي إليكَ أيها السجان فما عدت راغبة بحرية تنأ بي عنك بعيداً .

أمسُكَ الغريب المربك الذي حدثتني عنه كم تمنيت نفسي أن أكون طيه كحدث .. كم حسدت أصدقاءك وأماكن لعبكَ على أنكَ حللت يوما بينهم لم أصحبك فيه .. الذي حيرني أكثر هالة الحزن التي تعلوكَ الآن فقط عرفت منشأها .. ما أبهظ ما دفعت وعانيت لتبدو هكذا .

يـــا مـــن علمتنـــي مـــنهجاً فأعـــدت تلقيني أبجدية الحياة والبديهيات الأولى التي غفلت عنها .. أودعتكَ نفسي فأعدتها إلي كما كانت بل أبهى وأزهى ولم تعبث بها أشك أنني إليكَ سلمتها.

يـــا من أنضجتني بحرارة الضم بكَ نظرتْ أنوثتي قبل

موسمها يوم عرفتكَ ولم تقطف ثمار دانيها وهي تتدلى من شوق علیائها الضامي وأنا العطشى دوما للسقاية .. يا من بللت بالقبل الـــندية جــذوري فأينعت قبل الموسم وأنا الصبية التي لم تتعد نـــضارتها عدة وريقات .. من أنت يا ربيع الإنبات؟. أكاد من يقيني وإيماني بكَ لا أعرفكَ كل يوم أقابلك فيه تضيف لحيرتي فـــيكَ ســـؤالاً ولعقلي جنوناً .. يا من تصنع الاستفهام أصبتني بذهول أتعبتني كثيرا .. أرفعك تسامياً وتوقيراً لما تحمل من نبل فأراك تواضعاً حدي .. بربك من ألقى بكَ في طريقي .. أعود عـــن سؤالي مصححة صيغته لأقول من قذف بي في دربكَ بل أي تقاطع جمعنا ؟

لابـــد مـــن بـــر لتساؤلاتي حتى ترسو نفسي .. أنواؤك المـــتلاطمة عصفت بي مزقت شراعي فرسوت جواركَ بسكون وأنـــا المدينة بالفضل للأنواء ولعواصفها الجميلة الهوجاء التي قـــذفت بي إليكَ حتى بكَ ارتطمت فشكل لقاؤنا حادثاً سعيداً نجم عن تلاقينا .

أتـــشاركني الرأي بأن الأسباب التي جمعتنا أظن أنها لم تخلـــق إلا مـــن أجلنا وأن هناك تواطؤاً قدرياً قد رتب الأمور بفوضوية ما لتبدو هكذا .

نعــم بل أضيف إليه مقراً يا خليلتي .. بأن نور القمر قد خُلِــق أزلاً للعــشاق نـــديماً وما تبقى من قبسه تبرع به ليسكن جوف سراج قديم لمعدم لا يملك لمصباحه زيتاً .. ليهب الأمان لـــربان تائه ذاك الذي يمخر اليم ليلاً بزورقه الخشبي باحثاً عن مرفأ أضناه التيه عنه طويلاً فلا يتركه إلا بعد أن يسلمه ضياء الفجر أو رصيفا آمناً ثم يلوّح له مودعاً بعد أن اطمأن عليه آفلاً من بعيد ليشرق في الليلة التالية على عاشقين أو ربان تائه آخر فـــي مكـــان جديـــد من هذا العالم الداهم الحلكة .. أ ترين أنني أحتاج القمر لأتبينكِ أم أعوزكِ لأراه ؟

عــندها قلـــتِ وأنـــت تقهقهين: بي مس أيها الحكيم فداوِ جنونـــي ثم ساد صمت لم ندرِ كم استغرقنا العناق فيه والتقبيل فقلت لكِ هلمي فقد اشتدت الرياح ألا ترين ارتفاع الأمواج كنتِ ترتجفين برداً يا من أوقدتِ سعيري .

لحظ عودنا أشرتِ من بعيد لبناء يقع بمؤخرة الشارع .. تبعت عيناي إبهامك لحيث يشير فتقولين بالدور الثاني من تلك البـــناية أقيم أترى تلك الشرفة إنها تخص صالة الضيوف أما الشباك الذي يليها فهو لغرفتي التي أتضور فيها للقياكَ جوعاً .. أ تذكـــرين أنكِ توقفت فجأة وأنت تقولين لا أقدر أن أخطو بكَ

أكثر من ذلك خوفاً عليكَ من حقل ألغام شرقية الصنع لا توجد على محيطه علامات تحذيرية .

إنه شارعي الذي أقطنه .. أتدري أنه متسع بشكل يسمح لعبور سيارتين معاً ويضيق عنا فلا يسعنا أن نسلكه سوياً لتضيفي قائلة: سأراكَ بعد غدٍ .. تسرقين بذلك من عمري القصير يوما حجة حضوركِ لمحاضرات لا يمكن التغيب عنها متسللة بما يشبه وقار راهبة تخطو صوب دير كنتِ تبدين كذلك يقود خطاكِ احتشام محجبة لم يفلح جلبابها في إخفاء ذنوبها .. لم يُوفق في نقل الصورة البريئة التي تودِ أن تكونيها بارتداء مسوح البراءة والطيبة المحاك بنية تضليل العيون وتركتِ تحسري يلوكَ مشهد اكتنازكِ .. يشدكِ من دبرٍ غادية تتمايلين.

عدت للانزواء حاملاً همومي التي حلت علي مبكراً بمواجهة غدٍ تنقصينه أن كيف أواجهه؟. أين لي بخليلٍ يؤنس وحدتي حضوره وأنا الذي تعودتكِ جرعة .. كيف لي أن أقاوم أثار إنسحابيتك لأنني أدمنتك؟

كان علي أن أعود للمنزل لتبييض نص تحت اسم (الغريب) كنت قد أسست فكرته على معاناة من يستقلون الرحيل ولم يتمكنوا من العودة للمكان فكان ما كتبته:

« حــشد مــن الناس قد جمعهم الفضول فالتفوا متحلقين حــول جــسد لنحيل افترش رصيفاً على قارعة الطريق متدثراً بأوراق صحف قديمة جثة باردة سرق الموت دفء الحياة منها .. كان المسكين مرتدياً أسمالاً بالية مبللة برذاذ البحر الناتج عن تكسر أمواجه وارتطامها بالجرف الصخري قُبض مبتسماً كأنه كان يسخر من ملاك الموت لحظة قدومه، هذا ما قالته إحداهن فأردفت الأخرى: كأنه سئم شقاء الدنيا فرحب بالمنية مبتهجاً .

الــصورة تبدو من قريب لأحدهم بمنتصف العمر تقريبا غــث الــشعر كثيف اللحية نحيل الجسد، كانت نظارته ساعتها ملقاة بالجوار منه .. بعض من أوراقه قد ذرتها الرياح بالأنحاء .. ثمــة قلم رصاص من النوع العادي جوار مظروف معنون ينتظر يداً تحمله .

عُثِر بجيب معطفه أثناء الاستدلال لمعرفة من يكون على جــزء من رغيف متيبس وبعض قطع من العملة المعدنية .. بمعــصمه ساعة يد عتيقة يعلوها الصدأ متوقفة عن العمل منذ أمــد بعــيد .. أتــراها فضلت الانتحار قبله صمتا فوأدت ما برحمها من دقائق وإلا فكيف لها أن تصمد وهي تحصي زمن شقاء صاحبها، أم أنه هو الذي لم يعد يكترث بدوران عقاربها دون جــدوى وهــي التي لم تحمل له يوماً من البشرى شيئاً

مفــرحاً عــدا غصة فقرر لمَ النظر إليها وهي التي تنهش من عمره الأيام والسنين .

وُجــد بين طيات الورق المقوى الذي كان يفترشه على جــواز ســفر عربـــي منتهِ الصلاحية منذ عقدين مثبتاً عليه صـــورته يوم كان فتيا .. يوم كان يتقد شبابا ونظارة لا تنبئ عن مآل صاحبها الأخير شيئا .. كان من بين أوراقه المهترئه صــورة لطفل صغير بحضن امرأة تتشح رداءً يفيض وجهها بحنان الأمومة .. حُمِل المسكين على نقالة أخيراً بعد أن أعياه المسير وكلّت الخطو رجلاه .. ها قد توقف بالنهاية فما عادت قــدماه تقــوى على حمل هموم رأسه لم تعد تختط شيئا على الطــريق .. كــم توقف المسكين مرارا قبالة واجهات المحال الــزجاجية محدقاً لما خلفها ليمضي متابعا سيره بانكسار الذي لا يملــك إلا الانسحاب المذل فيبتاع به منها خيبة .. كم تنهد قــنوطا وهو يرى تشابك الأيادي ولحظات العناق بالمساءات الدافــئة .. كم من مرة بحث بالجوار عمن يصغي له ليروي مأساته .. عن أنيس يهمس له علّه يصغي فيخرجها صورة أمه ينتحب بحضرتها فإذ بيدها يحضرها من بعيد قهره لتدعك له فــروة رأسه مربتة على حطام هامته كمن تقول له: لا عليك بني فما عادت الدنيا تساوي » .

التـجـوال

كنت لا أملك أية وجهة محددة بذاك الصباح سوى إرسال النص للصحيفة فتوجهت لمكتب البريد مُتِما ما جئت لأجله، بعد أن أنجز الموظف المختص إرساله بواسطة (الفاكس) أعاد لي نسختي فخطر ببالي وأنا أخرج من مكتب البريد الذي يقع بوسط المديـنة أن أعرج مستغلاً المناسبة بالتجول في أماكنها القديمة حـيث أنني من مواليدها وأن علي أن أزور مسقط رأسي حيث دوت صرختي الأولى فقادني تلهفي لقدسية المكان مؤدياً طقوس تأملي كواجب لا بد منه أمام بناية كانت قد نبتت بمكان المنزل القـديم هـناك حيث ولدت بين دفء الأعواد الخشبية التي كان يتشكل منها السقف وعطر رائحة الجدران الطينية الرطبة التي كانت ترفعه بتواضع مهيب، باستدعاء المشهد بصورته القديمة أتـضح لـي وأنا أسحب شهيقاً أن رائحة البخور الذي تضعه جدتي بموقد الفحم القديم لازالت تطوف عابقة المكان .

خمـرة الروى أدارت خيالي فلمحتها جدتي تلك العجوز التـي يرجع بياض بشرتها الناصع لأصولها التركية تقتعد نطعاً بمعية عجوزين إحداهن تدعى الحاجة غزالة والتي يقابل منزلها سـكن جدتـي مباشرة أما الثانية فهي الحاجة مبروكة والتي لا

يفرق محاذاة منزلها لمنزل جدتي سوى منزل خليل الغريب في الأمر أن الموت يجمع أيضا أقصد لا يفرق كما قيل بحقه دائما فحـــين تـــوفت الحاجة مبروكة لحقتها بعد أسبوع جدتي وكأنها أبـــرمت معهـــا مـــوعدا للقاء بالمقبرة وإذ ملاك الموت بلوح المقاديـــر يجـــري تلـــك العملية الحسابية فيطرح الأعمار وفق المقدر لها فيمتلئ طابور القبور الذي تشغله مبروكة ليبدأ عمال الحفـــر بآخـــر محاذياً له فيشترط القدر على جدتي فتدفن بقبرٍ يجاورهـــا فيؤنسا بعضيهما بالآخرة كما بالدنيا .. سرحت بعيداً بمـــا آلـــتا إلـــيه قلت أظنهما بالليل يتسامران ..شممت رائحة استواء الشاي من تحت القبرين .. لم أحدد مبعثها بدقة .. أظن أن إحداهن كانت تعده والأخرى منشغلة بتظفير شعرها .. يا إله الكون رحمتك .

غـــادرت المكان الحزين بعيدا فساقتني قدماي وأنا أجول أحـــشاء المدينة لمرابع الطفولة من جديد زرت أماكن المشاغبة ذارعاً الشوارع التي عدوت فيها مبكراً بتمهل أملته علي السنون والـــوهن ممنياً نفسي بالعثور على أحد الأصدقاء هنا أو هناك علّه يقاسمني وحدتي التي حلت بغيابها فلم أعثر إلا على الأمكنة التـــي وجدتها رابضة وقد اعتلاها المشيب .. شرخ في جدار و

تداعـــي أســقف خــشبية .. أثر لخطى .. بقايا أشلاء .. فوح الخوالي هو كل ما تبقى، عثرت أثناء تجوالي الذي جره الحنين علـــى كهل يبيع للصغار عنفوان يفاعة أمسه رواية بزمن الهرم وتـــصحر العمر متغنياً بمواسم الصبابة المطيرة العطاء متسائلاً وهـــو يبكـــي: أيـــن العمر بي ولّى ومضى؟. هكذا لمحته أحد المنتمـــين للأمس ينعى صديقه الذي ورد ذكره بحديثه بأنه مات غنـــي النفس بعد أن عانى العوز طويلا قال عنه: أنه لم يتسول ولـــم يمرض أيضا فقد كان يتناول رغيفه حافاً دون نخل عندما سأله الصغار عن السبب وما دعاه لذلك أجابهم بأنه يقي المعدة من عدة أمراض !! .

مررت أثناء تجوالي بسوق الحشيش .. وقفت قبالة دكانة ســـيدي عثمان مُبحراً بالذاكرة للوراء حيث قِرب اللبن وتزاحم الـــزبائن أمـــام محله الصغير .. فحضرت صورة لشيخ قصير القامـــة مبارك الملامح طيب القسمات من فرط قصره لا يظهر لـــك إحدداب ظهره يعتمر شنه حمراء مغبرة بنخالة الشعير لا تفارقـــه أبـــدا، تراءت لي صورته وهو يجادل بعض القرويين بلباقة تاجر أمين .

آه .. تغير الحي بموت الأعزاء .. أين جمعة (الفروج)

صاحب تلك الضحكة المدوية وأبريك ..أين خليفة والصادق .. أيمـــوت مختـــنقا من باع الريح للمراكب فأبحرت تمخر العباب بأنفاسه .. بفضل ما دوّن وكتب؟

أيوارى النيهوم فيهال عليه تراب النسيان وحصو التنكر وقـــبور النكـــرات أعـــلام؟. أم هما من أصرّا على أن تكون لحـــودهم حفرأ عادية من فرط تواضعهم فكان لهم ذلك .. وما أنــــا إلا قادم من برزخ سنين العمر متجشما أتيت أنبش المكان عنهم أسأله .

آه لـــو أن عجلـــة الزمن تتوقف لأدرتها للوراء وعشتها معهـــم أيـــامهم المنقـــضية من جديد .. أذهلني تغير المكان .. الحداثـــة جـــرف لكـــل الأشياء .. إلغاء للأمس .. تغييب لأثر الطيبين .. للبيوت الطينية الدافئة التي سكنها الودودون يوما .. وحـــدها الذاكـــرة القـــادرة على جلبهم من الردى والإتيان بهم ليـــسردوا ســـمر لياليهم المقمرة .. وحدها الذاكرة القادرة على تـــرميم ما تداعى من بيوت رحبة، تشيدها من جديد، ليته كان كسيحا الزمان .. مشلول الخطى فالموت لا تعجزه سوى الذاكرة وحـــدها من تستعصي عليه وتتأبى تنجبهم من خصوبة رحم لا يطاله عِقرُ عدميته .. تأتي ببازامة الذي رسم بدعاباته الابتسامة

علـــى ملامح الصغار فأضحك الكل غير أنه وللأسف الشديد لم يبكه أحد .

عدتها أدراجي حزينًا منكوباً مستنكراً حفيداً لا يعرف من أمـــر جده شيئا .. من عامل أنكر فضل معلمه بمدرسة الأمير الليلـــية ذاك الـــذي لم يتقاضى عمّا أدّاه شيئا .. متذكرا خصاله الحمـــيدة وهو يشتري كتباً لمن لا يملك حتى أنه لم يتوان حين رآه يرتجف بالشتاء فقدم له معطفا يقيه لسعة الفقر والعوز .

وكـــأن شـــهراً غِبـــتهِ عني جئتِ إلي باكرا قبل الموعد بـــساعة قبلها لو تعلمين كم تأرجحت بي الظنون بين أن تأتي ولا مـــتعلقا بمـــوعد يمكـــن إلغاؤه أو تأجيله بعدة وسائل جد ميـــسورة الأعجـــب منه أنني رأيتكِ هناك قبلي كانت مفاجأة حـــضوركِ المبكـــر الذي أعلنتِ من خلاله تأخري وأنا الذي ساقني الوهم بأنه باكراً بي جاء .

- كيف حالكَ؟

- الآن أحسن.

- ماذا فَعلت بالأمس؟

- سلي الأمس عم فعله بي .

ـ كيف أستتبئ أمساً تولى ؟

يمكـــنكِ ذلـــك، ألـــم تلحظـــي إشراق نفسي بعد قنوطها واستبشار ملامحي مهللة ترحيباً بمجيئكِ دون نطق؟. ألا تحسين من حرارة اللقاء بأن ما قبله كان بارداً كصقيع شتاء .

ـ أين أمضيت الأمس ؟

ـ دونكِ كنته وحيدا كيتيم .. فأنتِ بد لابد منه .

ـ أ نمضي؟

ـ إلى أين؟

ـ أي مكـــان قد أستطيع البوح فيه والاعتراف بمكنوناتي المحجبة والتي لا يسفرها إلا حضوركَ، إن ظللنا على مثل هذا الحال لن تفوز بشيء منها .

ـ أعرف استحالة ذلك .

ـ ما رأيكَ بالبحر؟

ـ لما اخترتِه ؟

ـ لأغتسل من حدث التغيب .

إنـــكِ تـــستعملين أسلحتي بل وتجيدين التصويب بجدارة

تفــوق قناص ماهر .. بت أخاف مصرعي بعيدا عنكِ، أصاب الــشاعر بـــرده على قول المنادي وهو يحث على الجهاد قائلا بـــصوت جهوري (حي على الجهاد) كان الشاعر ساعتها بين حسان ملاح يعاقر صحبتهن خمرة فانتشى قائلاً :

يقولـــــون جاهـــد يـــا جمــــيل بغـــزوة

وأي جهـــــــــاد غيرهـــــــــن أريـــــــــد

لكـــــل حـــــديث بيـــــنهن بـــــشاشة

وكـــــل قتـــــيل بيـــــنهن شـــــهيد

يالبلاغة قوله .. أ تظن أن عدوى بلاغة المفرد قد انتقلت إلـــي بفعـــل العـــناق والقـــبل .. أو تدري يا حبيبي أن جميع الأمـــراض المعديـــة يمكـــن التحصن منها بمصل أو لقاح عدا العشق الذي دوما ما يصحب بمعيته فيروسات جميلة كأعراض جانبية لمن يعيش الحالة كرشاقة الكلمة ونرجسية العبارة فتسكن تلـــك المفـــردات قلب المبتلى فيوكل عنه الشفاه المضطربة في الـــنطق بهـــا .. تحملها عنه بعد أن ناء به حملها .. تزيل عن كاهله وزرها كي يتفرغ لتنظيم خفقاته ودوزنتها .

- ما هي أخبار الدراسة ؟

- ليست على ما يرام .

- المجاميع الشهرية هل أطلعتِ عليها ؟

- لقد بُعثِرت .

- كيف؟

- لأن قيامتي حلت يوم عثرت عليكَ .

- هل تعلم أن بعض الصديقات قد لاحظن وجودكَ ؟

- ولكنني لم أذهب إلى الجامعة .. قد يكون أحد يشبهني.

- لم أقصد ذلك الذي أعنيه سرحاني ووجومي .. انشغالي من وشى عنكَ لهن .. لم أنطق بشيء غير أنهن قرأن شيئا من وجوم ملامحي الشاردة تيها بغيابك الذي سرق حضوري مُبقياً عليّ جثة بعد أن اسئل من جوفها الفؤاد .

- كيف ذلك؟

- من خلال هيامي بعيدا .. من شرودي وتحليقي بأفلاك

الـــسماء، من إبحاري صوبكَ .. أ لا تعرف أن النساء أقدر من الرجال على سبر أغوار المجهول؟

ـ أعلم ذلك .

المهـــم أنني لم أعترف لأي منهن .. اجتهدت في تكذيب كل الحقائق التي قد تضعفني فأقر معترفة .. أخرستها متنصلة مـــن كل المضابر النسائية بالاستناد على واهي الأعذار فأشدت مـــنها صرحا أعلنت من فوقه براءتي مما نسب إلي حقا بأنه زور .. يـــوماً ممـــلاً كان يحمل كل سمات الرسمية المقولبة بـــشكل واضـــح جدا .. كان إصغاء، حجة المنهج المهتري لا تسمح بمناقشته .

ـ أنتَ ماذا فعلت بغيابي ؟

ـ لا شـــيء يذكر عدا توحش نفسي .. دونكِ طال اليوم وتمـــدد المساء ما زاد في حلكة ليله لدرجة أن قتامته اشتدت على غير عادتها .

ـ وأنتِ؟

لقـــد اســـتودعت جسدي المكان أجلسته القرفصاء معتقة روحـــي من قيود الوجود الجسدية وانفلتت صحبتها بعيدا عن

التسمر الممل ناشدة بها فضاء الحلم والتمني .. زركشت أيامي القادمـــة بكَ .. أرتديته أجمل فساتيني فبدا طيفكَ أمامي فسألته مراراً وعقب كل ارتداء أيعجبه هذا أم ذاك فلم يجب وكأن كل الأثواب لم تُرضِه حِرتُ في أيهن قد ينال إعجابه ويشده فآسره أشـــبع بجنونـــي نهـــم طيف رسمته بخيالي وأنا الجوعى لأن ترانـــي.. كـــنت أتوقع ضمك يلتهمني .. تأبيك الغريب أمره مكتفياً بمنحي ابتسامة لا تفيني حقي هو ما أثار حفيظتي عدم اهـــتمامك وكأن حضوري لديك لم يعد له ذاك الوقع .. سألتك عـــم حـــدث ففاجأتني بما زاد من حيرتي بأنك بدوامة الخوف تقطن نفسك قلقة.

- ممن تخاف؟

- الغد .

- ولكنه لم يحل بعد .

- أخاف قدومه .

- كيف؟

عندما يأخذك مني .. إلى آخر .. هنا يقع مقتلي في هذه الـــزاوية تتربـــصني المنية .. عند منعطفها وأنا الفقير الذي لا

يملــك مــن مهركِ إلا خفق قلب كان منضبط الإيقاع قبلاً فإذ بمجيئك يبعث بسكونه فوضى .

إنني سيدتي أبحث عن شفاء لنفسٍ قذفت بها الظنون بعيدا فتلاعب بها التوجس مما قد يحدث بعد اليوم مستمطراً من القدر كــوارثه راجماً بالغيب راسماً بتطيري وقنوطي عبوس ملامحه بأن ثمة مصيبة تلوح بالأفق .

- لا تكن تشاؤمياً .. ثم كيف لي باستبدالكَ وإحلال آخرا لــن يكونكَ مطلقا .. الغد الذي تخافه لا أملك منه إلا إصراري بأنك هو .. ألم نلتق عند رصيف تعبره آلاف الأرجــل كــل يوم فإذ به يبوح لنا بسره أنه في الأزل عُبِّد لكي نعبر نحن من فوقه أو نلتقي عند حافته وأنه لا يأبــه لغيرنا فيعدهم أرجلاً لسعاة غير مكترث بأي منهم كونهم مجرد أحذية تبعثر الخطى بكل صوب؟

إن الغــد الذي تخشاه قد دُون فوقه اسمينا ولا يوجد حيز بــصفحته لإضــافة اســم لآخر أو أخرى .. ألم يتضح لك بعد الغد؟. ألا تراه مبتسماً يلوح من قولي؟. بل أجزم من فرط يقيني بأني لك سائلة عهدكَ بألا تكون لغيري .. أتعدني؟

لحظتها فقط هدأ روعي .. سكنت نفسي غير أن خفقي قد

زاد فـــسرت بأشـــلائي أشـــياء لم أعهد تدفقها من قبل .. كيف أحكـــيها وأبجدية اللغة قد أعلنت عن قصورها فتركتها كمساحة خاويـــة الأسطر مفادها: عجزها ورسوبها فسلمت ورقة إجابتي بيـــضاء كممتحن نفد صبره وحبره معا يا صغيرتي كم أسعدني فـــشل المفرد في التعبير عن الساميات من الشعور كيف لي أن أصـــف تعـــبد مُحبٍ مرتلاً آيات من مصحف الوجد عشقا في محـــراب الطهر المنزه عن دونية الجسد ووثنية اللذة .. يتدنى المفرد حينها ليصبح دونها الحالة أدنى .

يـــا شـــقية فاق ظلك كل الأجساد .. يا من أعبقتِ العطر فغـــدا فـــواحاً بانسكابه عليكِ وكأنه قبلها كان مجرد ماء، هول عبقه وإكسيره بُعثا من تنهدات صدركِ الذي عجز عن الاحتفاظ بها فأهدانيها ثغركِ يوم أشهد فيه الشفاه على ذلك .

أتـــدرين أن الدجـــى ما عاد يحلك حين بقربي تحلين .. تفكـــين بإشراقكِ تزرير سواده فيغدو كشروق فجر في منتصف الليل .. أنا سيدتي من أقسم على نديم الثمالة أن يعبئ كأسي بكِ تـــيهاً يلغـــي كل الذنوب تتلاشى فتذوب لتصبح سيئاتي حسنات تجيز لي دخول جنتكِ المتقدة فيكِ كجحيم كم يسعدني أن أتلظى فيها بجمر السعير لأطلب المزيد .

ـ أتلك خماسية الخيام يا شقي؟

نعــم غير أن السادسة مستفسرة يقودها إلحاح مفاده: ماذا فــيكِ غير احتياجي الذي لقيته هائماً على وجهه تائه لديكِ يوم وجدت ضالتي مرادها طرف ردائكِ تحوم نفسي .. دون إحرام تلبي وتطوف .. نحن يا صغيرتي من اعتصرنا من العشق نبيذاً وتجــرعناه كؤوساً وأقداحاً .. فكيف نفيق؟ بل كيف نصحو بعد أن احتسى كلانا من كلينا .. تبا للصحوة وللحضور .

أتــدرين أن القمــر أقــسم عليــنا عندما رآنا ألا يغادر كالمعــتاد أتــرينه كــان ينير لنا المكان أم يتلصص علينا من علــيائه واشــياً بنا لغيرنا محدداً المكان لعيون عاشقين سوانا تتــرقبنا من بعيد لتحذو حذونا وتقتدي بنا غير مبالية بعواقب الأمور .. أنا الذي من هوسي سمعتها وهي تناديه أمه السماء أن ارجع تقولها له فقد أزف ميعاد الشروق لتسلم أختك الشمس إمارة الكون .. تأبيت أيها القمر وأتت أختك منفلتة من عقالها لتشرقا معا نوراً وضياء .

خليلتــي أنــا من سبحت روحه ببحر الخيال لِتنبتَ فوق ســفحه حقــولاً مــن ربيع .. أنا من غرست فوق تلال موجه طاقات قرنفل وأغصان ياسمين مظفراً من حلمي بكِ منها غاراً

وعقــداً يطــوق عنقك .. قبل أن تأتيني تلمست وجودكِ من يتم قــدري وحزنه فأنجبكِ عدمي وفقري المدقع مؤمناً وأنا أصنع تمثالك بأن روحاً ملائكية ستسكنه لأعبدها .

أتذكرين أنكِ عقب قولي ألقيتِ علي القبض احتضاناً كأنكِ لا تطيقين المزيد لتطلبي الأكثر .. وأنت تتنهدين سمعت وشيها الـــسري المعبر صمتا عن فوضى الانفلات الجامح لمهرة برية تأبــت الانــصياع للجــام ســئمت تكبيله فسلمت أمرها طائعة مستــسلمة لمــن يــربت على ظهرها بحنو ماسحاً عنها غبار الـــسكون وقــيوده الخانقــة مثيــراً الشبق الخامد مُضرِماً بيده الرغبات الغافية فتلتهب اتقاداً .

كـــان لي تمنعاً مفاده: ليس الآن وهنا .. بينما ضمكِ لي يــشتد أكثــر قــائلاً بل التو وهنا .. كان لدي الكثير من القول فــسددتِ علــي منافذه بشفاه آسرة فامتثلت لها كاستجابة عبدٍ لا يملــك مــن إرث رقــه إلا قيداً .. برهة وسرت رجفة بيننا لم نعــرف لها سببا لحظة علاكِ فيها احمرار تسيد بياض بشرتكِ رأيــته طافيا ملامحكِ لا أعلم له مرجعا ثم سادنا صمتٌ فصيح العبارة فانبرأ معبراً بلغة عينيكِ تتسولينني بما جاوز القول .

كان تشابك الشفاه يشتد ناقلاً عدواه لأيادينا ليزداد وطيس

معـــركة لا مفـــر منها .. بل لابد من نشوبها .. ضممتكِ فإذا بـــضعفكِ يفـــوق شدي وإذ باسترخائكِ يخترق تمنعي مستهلاً بدوي إعصار تنهيدتكِ المزمجرة فتدك سور تمنعي تحثني الرد باحتـــساء المـــزيد ليزداد ظمئي فأنهل مجدداً من نبع ثغرٍ لا يعرف النضوب .

أتدرين حينما مر البائع الجائل بجوارنا لم نشعر به إلا أن مروره قد فض اشتباكنا مؤقتا حتى توارى عنا ببعض خطوات لـــيس إلا لـــنعلن اشتعال الجبهة من جديد .. معركة تلتها هدنة قـــصيرة استنفرنا فيها الحشود خضناها ضروساً دويها صمت العـــناق واعتصار الجيد .. الغريب في الأمر أننا انتصرنا معاً دون خسائر قبل اجتياح الحدود .

عُدت لوحدي مستعرضا يومي الذي قضيته صحبتك فخطر ببالـــي تساؤل عم أغفلني عن تقديمي لكِ شيئا يليق بما بيننا .. تلك الفكرة الشاعرية غابت عني وأنا الذي أزعم أن لي علاقة جد وثيقة بالأدب ونرجسية الشعور مسائلاً نفسي ذنبها الكبير:

كيف لي وأنا الذي جلت بها الروابي الخضر ولم أفطن فأقطـــف لأجلها من بديع صنع الله زهرة وكأن خريف عمري أعمانـــي أن ثمة ربيعاً أنبته غيث السماء عبثاً ليس إلا لتدوسه

الأرجـل أو تتلقفه الأنعام لحظة جوعها ولم أفطن أنها ستشبع حـبا .. اختمـرت تلـك الفكرة برأسي فصحوت اليوم التالي مزمعا التوجه ناحية السوق .. ولجت عدة محلات نسائية باحثاً لهـا عن هدية تذكرها بي حال غيابي لم أوفق .. أعني أنني خـرجت خالـي الوفاض كما يقولون عادة، كانت كل الهدايا المعروضـة التي مررت عليها قد صُنعت لأخريات فخرجت بخيـبة اشتريتها لنفسي وأضفتها لباقي خيباتي إلا أن القدر قد سـاق لـي صديقاً حين احتياجي وكأنه كان يرمق حيرتي من بعيد بفضول حتى يتدخل في اللحظة الحاسمة التي تقتضي ذلك صـافحته تجاذبـنا معا أحداثا ولت وذكريات خلت باقتضاب وإيجاز شديد من عندي أما هو فقد كان يود التوسع في سردها وقد عذرته كوننا لم نلتق منذ سنوات ولكن كان عليه هو الآخر أن يلـتمس لي عذراً أيضاً لانشغالي بالأهم والذي لا يعلم عنه شيئا حتى أنه لم يفطن لاقتضابي الحديث معه ولكونه نسى أن يسألني عن سبب وجودي أو أنه أجله لما بعد .. تداركت الأمر سـريعاً متبـرعاً لـه مـن عندي بإجابة مجانية مقدمة سلفاً بافتراض سؤاله .. لمَ أنا هنا؟

ـ أبحث عن هدية تليق بفتاة ليست عادية .

– وما المناسبة ؟

– استحقاقها المتأخر .

لكونه عملياً قال: اختصر الموضوع ولا داعي لإطالته.. أعنـــي قـــدم لهـــا مـــثلاً زجاجة عطر غالية الثمن ثم خذ منها موعدا.. الباقي أنت وشطارتك ولأنّه لُعبي لم أستغرب أن تأتي منه تلك الفكرة الرخيصة التي أعلم جيدا كم هم كثر ضحاياها .

– لا أمزح فالموضوع جدي وحساس أيضا .

– إذا تقدم واطلب يدها .

– ماذا أصنع بها؟. اسمع يا غبي من تهبك فؤادها تناولك الأشـــياء الأخرى مجانا ومن ضمنها اليد التي أشرت علي بطلبها .. لقد اعتصرتني بها يوما .

– إذن قدم لها نفسك هدية .

– دعنا من الفلسفة الغبية لقد استرققتها لها .

– وما الثمن الذي دفَعتهُ فيكَ؟

– ثمة معادن ومعانٍ لا تثمّن لقد وثقت بي واستأمنتني .

جاء في حديثي إليه قولي عندما تطرقنا للاسترقاق .. إن

العــبودية وصـــف قبيح يمقته كل البشر غير أنه يكون الأجمل والأبهـــى فـــي حالـــة واحدة فقط وهي أن تقتنيك حسناء نلت إعجابها لسبب وحيد وهو عوزها لعبد يملك ناصيتها .

- إذا لا مناص لك من سؤالها عم تحبه أو ترغبه .

ولكـــون فكرته غبية ودعته واعداً إياه بزيارة في الوقت القـــريب إلا أن اقتراحه الأبله أختمر بعقلي فدورته جيداً معيداً ســبكه بصيغة أن أسأل أخرى إذ ما تقدم لها أحد ما بهدية فما الـــذي تحـــبذه، كـــان لابـــد من خوض التجربة بسؤال إحدى العابـــرات.. عـــدت أدراجـــي منسحباً أمام ماذا لو أساءت تلك الأخرى قصدي النبيل؟. ألا يحق لها اتهامي بالتحرش؟ ثم ماذا إذا مـــا كانـــت شـــاغرة العواطف فأتت صحبتي لتختار بنفسها الهدية ثم شكرتني ومضت معي دون السؤال إلى أين أو حددت موعداً للقاء أعرف ما قد ينجم عنه مسبقاً من معارك جانبية قد تفرض دون وجود أسباب جدية للنزاع فقد يُصرع أحدنا بطلقة طائشة لم يكن هو المقصود بها .

عـــدت وقلـــت مـــاذا لو التقى ثلاثتنا أنا وهي وتلك أمام المتجر حين الشراء وسألت عنها من عساها أن تكون؟

يا إلهي .. الكارثة كيف لي أن أقنعها بأنني استعرتها من

ذلــك الرصيف للاستتارة بذوقها الأنثوي ليس إلا .. من أجلكِ حبيبتـــي ارتكــبت هــذه المعصية .. استدنتها من ذاك الطريق المقابل مجرد عابرة لا تملك وجهة محددة كي تعينني ليس إلا .

كيف لي ساعتها أن أنفي حقيقة ترينها ماثلةً أمامكِ لأخرى تملك خصراً ونهوداً وشفاه وجملة أشياء .. أتصدقين روايتي التي تتضح زيفاً .. ألا يساورك الشك بكلام يعلوه الطلاء ؟

عــندما التقيــنا عشية سردت لكِ ما سولت لي به نفسي الأمـــارة الهدية .. والأخرى .. وأنتِ .. لقاؤنا الثلاثي الذي تم ولم يقع أكنت تصدقينني لو حدث ذلك فعلا؟. أذكر أنكِ قلتِ:

- أصدقك .

- لمـــاذا؟. وكل الشواهد ضدي وعناصر الإدانة متوفرة حاضــرة بسخاء .. أصدقك لأن التخيل يتوسط الواقع والحلم عادة هو يراوح بينهما ورغماً عن ذلك فإنكَ لم تخفــهِ عني بل بمجرد أن التقينا بادرتني به وكأن هم التخيل أصبح وزراً له وزن أضناك حمله فاستعنتَ بي لأزيحه بإصغائي عنكَ فأحمل عن كاهلكَ ومأكنت تنؤ بحمله وحدكَ .

أتعلم أن اعترافك بذنب أوقعته مبدياً ندماً حياله يعد نوع مـن الاسـتغفار فيلغيه كأنه لم يحدث باشتراط أن يصحب ذلك توبة فما بالك بذنب ليس بذنب .. أنت هديتي وفسحة أملي أيها الـشقي فهبني نفسكَ لأمنحكَ غفراني ذاك الذي تبرعت به لك سـلفاً كـصك أبـيض لـكَ أن تدون به ما تشاء من ذنوب أو معاصـي شـريطة ألا تكون الضحية أخرى .. أيها التعيس لن أغفر لك هذه الخطيئة مطلقا لأنني أود أن أكونها وحدي .

- لماذا؟

- لأنكَ احتكاري الوحيد الذي أود ألا ينازعني أحد ملكيته هل اتفقنا؟

- إنها الرأسمالية بعينها رغم ادعائكِ الانتماء لليسار.

- إلا هذه فإنني أكفر بالاشتراكية .. لا أحد يقتسمك معي.

- اقسم أن تخلص لي .

- أراك تبتسم فقط .. لم أسمعك .

- لقد أقسمت سرا .

- بمن؟

– بكِ .

– لِمَ بي ؟

– قد أحنث إن بسواك أقسم .. فأنتِ إنجيل عشقي وكتابي.

أيهـــا الصياد .. يا من تجيد نصب الشراك المميتة كيف الـــسبيل لعـــصفورة أن تهرب من فِخاخكَ التي موهتها بفخامة العـــبارة ورونقها صانعاً منها طُعماً لذيذاً أمام ذات الريش تلك المسكينة التي تتضور لك جوعاً فتطبق عليها كم أسعدني أسْرُكَ لـــي فافعـــل بي ما تشاء بل أقم علي حد العشق أنا من يسألك القصاص .. ألهب بسياطكَ جسدي اسقِ ذبولي .

حـــتما يقودكِ جنون .. إلى أين عَزمتِ أن نمضي لم يعد أمامنا سوى الجحيم .. نار وحريق .. حمم يتقد لهيبها لا وارف شـــجر نـــستظل ولا عشب نفترش فقاطعتِ كلامي بقولكِ: إنكَ تصف الجنة بعينها .

– قبل أن أنسى هناك أمر .

– ما هو؟

– أصـــغِ إلـــي جـــيداً ولا تسيء الظن .. أنت تعلم أن الامتحانات قريبة.

ـ تماما .

ـ وأنه لابد لي من التركيز.

ـ وما الذي يحول دون ذلك؟

ـ أنتَ والذي بيننا .

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لابد من تقنين الوقت .

ـ أتودين إعلان حالة الطوارئ ؟

ـ نعم شيء أشبه بذلك .

ـ تقصدين حضر التجول؟

ـ تقريباً .

ـ أكملي .

ـ لقد اتفقت مع أخريين بأخذ حصص إضافية .

ـ وماذا عن حِصصنا نحن ؟

ـ دعنـــي أكمل، لقد اتفقنا بشأن البحث عن مدرس جيد يعيننا بالمنهج لم نعين مدرساً بعينه .. أ فهمت شيئا؟

- كــل الذي فهمته أنكِ تقدمين اعتذاراً مسبقاً عن الغد وما قد يليه، تطلبين مني بياتاً شتوياً .. لست ضفدعاً سيدتي.

- لم أقصد هذا .. ها قد أسأت الظن .

- أ تقبلين اقتراحي؟

- وما هو؟

- قد أصلح أنا لهذه المهمة .

- إنكَ تمزح؟

- لا .. ألــم تعينيني يوما بسلك التعليم كمدرس أو أستاذ يوم التقينا وجلسنا فاحتوانا ذلك المقهى؟

- أتدري أنها فكرة جيدة .. كيف لم تخطر ببالي .

- ماذا عن والدكِ وباقي الأسرة والآخرين؟

لا شيء سأقدمك كمدرس وُفقت في العثور عليه بعد جهد وعــناء مــا عليكَ إلا أن تبدي تشدداً حين التشاور مع أبي في المــسائل المادية .. أعلم رفضكَ مقدماً .. إنه نوع من التضليل أعــرف جيدا بل أقسم أنكَ من ستدفع مقابل رؤيتي أعلم ذلك .. تصنّع الموقف هل تفهم قصدي؟

نعـــم علي أن أحوز على جواز دبلوماسي بصيغة التشدد تلـــك كي أتمكن من الدخول إلى الأمكنة غير المجازة .. يا لكِ مـــن ماكـــرة .. كم هم كُثر أولئك الرجال وضحايا أيضا الذين يمنحون النساء ثقتهم ومصائرهم كيف لا وهم يستحقون العزاء فيها مُسبقا .

ـ ألا تخافين افتضاح اللعبة ؟

ـ ألقِ بهواجسك أرضاً .

ـ لماذا؟

ـ لأننا سندوسها معاً .

ـ إنهـــا ألغام قد تتفجر فينا لنصبح مجرد أشلاء مبعثرة يـــصعب لملمة فتاتها فكيف لفضيلته أن يقوم بتغسيلها وإكمال باقي مناسكه بنية دفنها .

ـ يـــا لها من ميتة شيقة تلك التي تصفها .. ألا يكفيك أن يـــزفنا الموت معاً مزغرداً بالدوي الذي يسبق تشظي أجسادنا لنوضع سوياً في كيس أبيض كشهداء فلسطين .. فالحب أيضاً قضية ولتصبح تلك الحفرة التي نودع بهـــا داراً صـــغيرةً ومقـــراً بحجم أمانينا المتواضعة

مــتخذين من ذاك الكيس ملاءة سرير لمرقدنا الترابي مقتطعين مما فاض عنه شرشفاً تسدله من فوقنا المنية فنحــسد على تلك الميتة التي لم ينلها أحد قبلنا وبآخر أمرنا سيأتي من يضع فوقنا أكاليل ورد فكأني بهم وهم يفعلونها ينثرون أزهاراً على عريسين بليلتهم الوردية فكــم للحب يا سيدي من ضحايا لم ينالوا هذه المرتبة الرفيعة من الشهادة .

ـ أســمع دعنــي أرتــب أفكاري .. سوف أقدمكَ باسم حركي.

ـ أتنوين إدخالي بيتكِ أم تنظيماً سرياً؟

ـ لا .. مجــرد تغطية وستار .. غبار أذروه بعد البسملة وقراءة المعوذتين .

ـ إنني أرفض الاختباء وراء اسم لآخر، ما العيب في أن تكون الحقيقة هي العنوان .

ـ لا يهــم سأدعوك باسمك الحقيقي .. لمَ لا وثمة وشاج حميمي بل علاقة أزلية بين الاسم وحامله ارتباط وثيق كــأن أسماءنا التي نحملها وننادى بها هي المعبرة عنا

بدقة دون غيرها فلا نصح إلا بها، ثم أنني لا أحبذ أن أكون سبباً في أي فصام ولو بحده الأدنى .. ألم تقل لي ذاك اليوم وأنت تساعدني في شرح بعض قواعد اللغة أنــه لا يمكــن وضع الفاصلة بين الاسم وصفته .. لا عليك سأتدبر الأمر بشكل لا يدعو للارتياب ولن أترك أية ثغرة قد يتسلل منها شكهم إلينا، ما أطلبه منك ليس سوى الحضور عصراً حيث يكون أبي موجوداً بالبيت.

فــي الــيوم التالــي وحسب موعدنا المحاك بعناية التآمر البريء دخلتُ المناطق المحرمة عابراً كل حقول الألغام مخترقاً أمــاكن الخطر المميتة التي كنت أخشاها سابقاً الغريب في الأمر أنني وجدت عليها لوحات إرشادية تشير إلى المسالك الآمنة منها .. ســألت صــاحب محل البقالة المجاور للبناية عن سكن السيد محمــود مدعــياً عدم معرفة بيته فتبرع لي بسبابته التي تبعتها لحيث أشار وهو يقول: إنه يسكن بالطابق الثاني من تلك العمارة.

صــعدت الــسلم منتحلاً وظيفة طالما أجللت من يؤدونها مــشيداً بأفاضــل الرعيل الأول منهم مُديناً لهم ومُعترفاً بجميل صنعهم على أجيال متتالية وبالخصوص جيلي الذي أنتمي إليه .. ولإكمــال الــدور بإتقان حملت بيدي رواية فوضى الحواس

للكاتـــبة الجزائــرية / أحلام مستاغنمي/ والتي كان قد أعارني إياهـــا الأســـتاذ رمضان بوخيط وهو أحد الأصدقاء الذين أعتز بمعـــرفتهم فإذ بها تزيد من اشتعالي وأنا من قرأتها بنية إطفاء حريقي مستعيناً ببعض عباراتها مرتلاً جملاً منها بسري متباركاً بـــتلك القديسة التي نفذت بعنقها ألا يُجز بسكين ملتحٍ .. طرقت الباب عدة مرات بشكل خفيف ففتحه الأخ الأصغر قائلاً: تفضل.

– هل الوالد موجود .

– نعم .. من أقول له؟

– عبد القادر .

– أ أنت الأستاذ عبد القادر؟

– نعم .

حـــضر الـــسيد محمـــود مرحباً بشدة وهو يدخلني صالة الضيوف بعد أن أجلسني برهة وسألني عن أحوالي وأسرتي من بـــاب المجاملـــة كاستنفاد منه للوقت الرتيب بأسلوب اجتماعي معهود .. خيرني بين شاي وقهوة .

– فلتكن قهوة .

صـــاح بأعلـــى صـــوته كما يفعل عادة أصحاب الأسر المحافظة في استعراض وإبراز لأصالتهم الاجتماعية وتمسكهم بالقـــيم السامية منها وإظهارها بقصد ليس بخافٍ أمام الضيوف والغرباء بمعنى أن بالبيت ثمة رجل قائلاً قهوة يا .. دون تحديد اسم المنادى وكأنه عورة حال أن ينادي رب الأسرة زوجته أو ابنـــته بالاسم صريحا .. سرقني التفكر متذكراً أنهم ببلاد الشام يكنون زوجاتهم باسم مواليدهم البكر من الذكور فيصبح الرضيع لديهم عنوان لأم ما عليها إلا أن تتضاعل أمام مولودها .. هم لم يحلوا بعد معضلة كيف ينادون من لم تلد بعد أو من أنجبت أنثى وكأنهم يستندون للآية الكريمة (وليس الذكر كالأنثى)، بعد أن شربت القهوة مباشرة التفت ناحيتي قائلاً:

- قـــد نما لعلمي بأنك مدرس قدير .. ابنتي واثنتان من زميلاتها يعانين التعثر ببعض المواد التي لا أعلم عنها شـــيئاً .. كل الذي أعرفه أن الامتحانات على الأبواب أيمكنك عمل شيء في هذه المدة القصيرة؟

- ثمة صعوبة كون المدة غير كافية ولكن إن تم استغلال الـــوقت جيداً يمكن عمل شيءٍ ما .. أعني يمكن تلافي مشكلة الوقت لا داعي للقلق .

- كيف؟

- فــي الأحوال العادية ساعتان في اليوم تكفي، وبما أن الفتــرة التـــي تفصلنا عن الامتحان ليست ببعيدة فإن الأمـــر يستلزم إضافة زمن أطول أعني أنه لا يمكنني التقــيد بـــساعتين فعامل الوقت مهم جداً في مثل هذه الحالات استطردت قائلاً: ما جاوز ذلك هو من عندي لا أطلب عليه أجراً .

- ما هو المبلغ الذي تطلبه .

- لا تحرجني .

علـــت الابتسامة ملامح السيد محمود رأيت الفرحة تطفو وجهه لا أدري لمَ كنت ساعتها سعيداً أكثر منه أ لكوني وضعت نفـــسي محله حتى خلت أني أبوها؟. أم لأنني أكثر احتياجاً لها مـــنه ..؟ فـــي الحقيقة أنا من كان عليه أن يدفع لا أن يقبض للجلوس بجوارها ولو للحظة .

- متى تبدأ يا أستاذ؟

- الآن إن لم يكن لديك مانع .

- ولكن الأخريان لم تصلا بعد .

ـ لا يهم تلتحقان فيما بعد .

ـ أ هي موجودة؟

ـ نعم .

ـ هذا هو المهم .

ـ والأجرة لم نتحدث بشأنها بعد .

ـ دعهـا بعد النجاح لحظة احتفالنا .. اتفقنا على ذلك .. ولا يدري أي نجاح كنت أضمر .

ـ سلمي يا مريم على الأستاذ .

أقبلت وكأنها لم تقبل فيما مضى .. مطرقة الرأس بوقار منـتحل عن راهبة باستحياء .. مستعار من محجبة زاهدة عن ملاذٍ .. استرجعت من ماضينا لقاءنا الأول يوم صافحتني باليد عينها أشهد الله معترفا بأنها شاركت يوما في ضمي واعتصاري وأنـه لـو خُلـق بهـا النطق لفضحتنا، استطرد السيد محمود بالحديث معي حتى وصل بختامه فقال:

ـ البيت بيتك يا أستاذ .

أتـراه باعني إياه بنقل ملكيته مشافهة أم استأمنني عليه؟

غيـــر أن الأخيـــرة كانت موجعة جداً، أوصاها بحسن ضيافتي وتلبـــية طلباتـــي كـــان يقصد شيئاً أضمر خلافه ثم قفل راجعاً للـــداخل مُغلقـــاً علينا الباب .. هو لا يدرِ ساعتها أنه بذلك فتح آخـــر يُطل على الفردوس الموعود مباشرة عدت وقلت كيف له أن يعلم ما بخافقينا من دقات فهي حتى وإن كانت تخصنا فإننا نحسها لا غير .

الجنة

لحظــتها لاحــت لي أشجار فاكهتها متدلية من هول ما تحمــل مــن ثمــار .. لمحــت فوق أرائكها الممدودة الحسان مــستلقيات بانتظار من أحسن فأحصن .. رأيت الغلمان يغدون ويجيــئون حاملــين كؤوسهم المترعة خمراً منسكبة من عيون بأنهــرٍ نبتت على حواف ضفافها أشجار فواكه .. تين ورمان وعنب .. سمعت خرير انسكابها يشدو كوتر قيثارة فينيقية تعبث بهــا أنامــل حــسناء .. وجــدت فصولها الأربعة وقد تلحفت بالخامس الذي لم نعهده بدنيانا يلفها .. تناهى لسمعي خرير آخر بــصوت رخيم فإذ بي بمحاذاة نهر نبيذي مسكي المذاق عنبري غيــر أننــي لــم أعــره انتباها كونه لا يذهب العقل .. لمحت رضوان مبتسما لرضا الموعودين بما نالوا لحظتي تلك تذكرت محاولتي الشعرية المعنونة (إلى الخيام) والتي جاء فيها:

هاتها مترعة كعين يتيم غائمة بليلة عيد

كالمآقي المفقأة ظلما

لم تعد معصية إن فعلتها

وتكومت تجتر أحلام الطيور

وأنت بالغل مصفود

أم الكبائر أن تصير صغيراً

أعطنيها ونل عني أجراً خارج المعهود

أسقنيها فقد أعجز الماء إطفاء حريقي

بل حلقي وجوفي يا نديمي .. فقد جف ريقي

رش بها المكان

أطرد من حولي الملائكة .. فقد غدوا عسساً ووشاة

ما عادوا أطهاراً

ظمآن يا صديقي

فزدني منها .. أرو جنوني

أزرع وأنبت بها يقيني

فما عاد سبيل الرشاد يفضي لسبيل

دع الحجر عنك فمنه تصنع الأوثان والذنوب

وتيمم بالزهد كفاك

ولا تبحث عن الموجود

إله بالسماء

ولغيره البعض عبيد

هو الأقرب إليك وإلي من حبل المشيمة .. من الوريد

عندما جاءت كان بيدها دفاتر الحصة واندهاش سؤال مرتسم على محياها فتقول بعد استراقها السمع لآخر بيتين كنت أتمتم بهما:

- وتقرض الشعر أيضا أيها النمل؟

- حين أتعاطاكِ؟

كانت تلك أول مرة أطلعها فيها على شيء من محاولاتي الشعرية لم تتمالك نفسها بعد أن رددت عليها أبياتي السابقة مرة ثانية بناءً على إلحاحها لتقول: أريدها مسجلة بصوتك على الجهاز .. هي هديتي التي أضناكَ البحث عنها .. بعد أن

جهـــزت التـــسجيل ارتجلتها ثالثة .. فارتجت كالأرض وربت وقالـــت .. يـــا إلهـــي إنك هنا يا حبيبي بعلم الجميع بل بإذنهم مـــضافاً إليه ترحيبهم ومباركتهم .. لقد نجحنا فاجتزنا المعابر الـــصعبة والأسوار العالية سالكين تلك الحقول التي كنا نخشاها فحمداً لله لقد أستبدل قدرنا فخاخها وشراكها المميتة وروداً في هيأة مواعيد مجازة .

- اســـمعي لقـــد كبلني والدك المحترم بقيد من الصعوبة الإفلات منه لقد قال لي: البيت بيتك يا أستاذ عبد القادر

- ما الضير في قوله؟

- علي أن أكون أميناً .

- على ماذا؟

- علـــيكِ .. لقـــد أوثقني والدكِ بعهد لم أقطعه معه غير أننـــي أجد نفسي مُلزماً به لابد من أخذ الأمور بجدية حتى أفي به .. أ يمكنك مساعدتي في ذلك؟

- فهمت قصدك .. نعم .

- ولكن داخل البيت فقط .. هل أراك غدا ..؟

ـ لقد انتهكتِ الاتفاق مبكراً .. كيف لكِ أن تطلبي موعدا منى في المكان الذي اتفقنا بشأن حرمته .

ـ آسفة يا أستاذي الجليل المهم ما رأيك في بيتنا؟

ـ يبدو جميلاً ومرتباً بأناقة لافتة للنظر تنم عن ذوق رفيع.

ـ أتجاملني؟

ـ لا .

ـ الصورة التي هناك أظنها للعائلة كلها .

ـ نعم .. كانت بمناسبة نجاحي السنة الفائتة .

ـ من الذي بجوار أبيكِ؟

ـ إنه أخي الأكبر والذي يليه الصغير من فتح لك الباب .

ـ تلك أظنها الوالدة .

ـ نعم .

ـ أأشبهها؟

ـ لا .

ـ إذا أشبه أختي تلك .

- أنت لا تشبهين أحد .. لديك بريق وحضور خاص جدا لم ألحظه بسواك .

- من ذلك؟

- إنه ابن عمي .

- أمتزوج هو ؟

- لا .

- لمَ تسأل عنه .. أ لديك عروس له؟

- لا مجرد سؤال ليس إلا .

- والذي أراه في عينيك .

- مجرد إرهاق فقط .

وقـتها لمحـت البؤس بمحياكَ الذي حاولت إخفاءه عني مرتـسماً وأنـت تتـصنع تصفح كتاب الشعر المقرر علينا .. استرقت ببصري قطوبكَ وما ارتسم فوقها من قنوط ولم أدرِ له سـبباً .. أعلم وأنت تقلب صفحاته أنك تبحث عن قصيدة تجيز لكَ الاختباء .. كانت لعنترة مصادفة فبدأت بشرح معاني الفخر فيها مُسهباً في تبيان بطولاته بنبرة حزينة وصوت أجش تعلوه

كآبـــة لا أدري مبعثها وأنا التي أبرمت مع الفرح موعداً لحظة وصولكَ فمنحتنيها قدري التعيس من كيس بخله بما يساوي بسمة شـــحيحة الانفـــراج وجيزة اللحظة لتنقطع فجأة بغيمة حالكة لا أدري أية سماء أنجبتها ونحن بربيع الحب .. قرأت في وجهك الجمـــيل حـــزناً .. ســـطوراً سوداء من نُكب العشاق وتعاستهم وكـــأنهم جُـــبلوا على التلذذ بما في مآقيهم من دفيق دمع وكأن البحار العظيمة أُنجِبت من تذرفهم عبر سنين خساراتهم التي لا يُعرف لها بدء قاطعتُ وجومكَ المفاجئ باحثة عن مرد ذلك .. كان كل ما يهمني هو أن أعود بك من بحر الظلمات .. أنتشلك مـــن قاعه السحيق فأدليت بطوقي إليكَ مازحة وأنا أقول: دعنا من عنترة الآن إنه ميت فقد بَليت عظامه منذ أمد طويل ثم إننا إن كنا ندين له بشيء فبالرحمة ليس إلا .

- لا بـــل يـــستحق أكثر .. كيف لشاعر مثله أن يموت وقصائده خُفق بصدور الرواة حتى أن حسامه لا زال يقطر إباءً .. أو تعلمين أن ذلك العبد التعيس قد أعتق أســـياده الأحـــرار من الأسر والسبي كنساء .. آه لو تعلمين الذي حصل له بعد ذلك .. كوفئ جميل صنعه بالتنكر عرفانا ! .

كـــان ينـــشد حرية وحبيبة فاستكثروا عليه ذلك .. أ كان مخطئاً في طلب الاثنتين معاً؟

فإذا بك تقولين لي أنه كان ينبغي عليه أن يسألهم الحبيبة فهي الوحيدة القادرة على نسيانه القيد .

ولكن فكرتكِ هذه ستجعله يجرجر من ورائه أمة موثوقة المـــصير مجهـــولة المآل مغلولة بذات القيد وبالتالي ستنجب له صـــبياً يكـــون عبداً لمولاه لا ابناً لأبيه .. وأنه دون أن يقصد سيضاعف بفعلته تلك عدد من يئنون رقاً لتصدق بالتالي عبارة (العبد وما ملكت يداه لسيده ومولاه) .

كان الأحرى به أن ينتزع من عشيرته الحرية لا أن يسألهم إياهـــا فـــإن تسولها منهم وتكرمهم بها عليه نظير استبساله عن مـــضاربهم ســـتكون مِنَّة عليه .. حرية مغموسة باشتراط المنح مكـــبلة مثله .. كم من مرة راوغوه وكذبوا عليه عقب كل نصر كان يسجله لصالح مضارب القبيلة متبرمين من وعودهم السابقة إلـــيه فيقتسمون الغنائم بين أشرافهم أمام رقه الصافد الحرية وفق ما أرى ليست عطية توهب بل حق كامل واجب النيل .

ـ لـــمَ أنـــت محتد هكذا؟. للتو كنت منشرحاً .. ما سبب انقباضك المفاجئ أتشكو من شيء؟

ـ من غدِ .

ـ متى كان لكَ غدٌ وحدكَ .. تقصد غدنا ؟

ـ قد يكون .

ـ ألم نتفق بشأنه وأنه لنا؟

ـ أقسم لك بأنني لن أكون لسواكَ .. ثم أننا لم نتطرق للغد بحديثنا هذا لقد حكينا عن الأمس فقط .. عن الزمن المغبر السحيق وذاك العبد التعيس الذي عاشه .

ـ لا تنعتيه بهذا الوصف أمامي مرة أخرى .

ـ لماذا .

ـ كونه تحرر .. هو الآن وديعة بين يدي بارئه ألا تعلمين أن الموت ذاك الذي نبغضه هو من منح الحرية للمصفدين؟ أولئك الذين رحبوا بمجيئه فتمنوه لأن خلاصهم من العبودية ونيلهم للحرية كان مقرونا باشتراط الرحيل.

ـ لست أدري ما الذي حدا بك أن تستميت وبإصرار في الدفاع عنه وكأن ثمة قرابة تجمعكما .

- كــيف لا وهــو من مات عاشقاً حالماً بالحرية طامعاً بالقليل منها في أن يملك ناصية أمره بيده ليحيا كما يود بخياره هو .. ثم أن الغد الذي تزعمين أننا لم نتطرق إلــيه قــد ظهــر لــي بوضوح مشيحا لي عن وجهه المرعب بصورة معلقة بذاك الجدار .

- من تقصد؟

- الغد .

- لم أعد أفهم شيئا .

- لقد تمثل لي (بشراً سويا) .

- إنكَ تهذي .. أتقصد؟

- نعــم ابــن عمــكِ مــن ذكرني به وإلا لماذا يحاذيك بالصورة؟ كان يفترض أن يكون بجوار شقيقك الأكبر أو أبيكِ .

- أيها المجنون إنني أعدّه كأخي تماما .

- ألا تحلّين له؟

كفى هوساً ولا تكمل سأعد لك فنجاناً آخر من القهوة حتى

تهدأ عندها دخلت والدتك للسلام علي وهي تقولي: ما بها مريم يا أستاذ؟ أظنها قد لحظت في عينيك أثراً قادها ناحيتي.

لا شيء عدا بعض المسائل التي تحتاج لإيضاح أكثر .. لــم أكذب عليها فقد كنت صادقاً في جوابي غير أن ثمة بعض مــسائل تــزداد غموضــاً وتعقيداً عند محاولة فك رموزها أو طلاسمها .

أثــناء احتــسائي للقهوة فتح أخوك الصغير الباب فدخلت الأخــريان صــافحتني الأولى الثانية لم تفعلها استرعي انتباهي فعلهــا الاستفزازي الذي أرجعته لمسوحها السلفي الأولى قدمت نفــسها على أنها فاطمة أما الثانية فتدعى خديجة كان ينقصني واحدة حتى يكون النصاب شرعيا بعد إضافة مريم .. استغرقنا شــرح القــصيدة طويلا فاستدنت من الزمن إضافة نفدت أيضا كــان الوقت يشير للغروب استأذنتكِ الخروج ولا زلت أذكر كم حاولتِ استبقائي بوجبة عشاء مع والدكِ الكريم وفاتكِ أن جوعي لا يــسد رمقــه إلاَّ أنتِ .. بمواجهة إصراري كان استسلامكِ لتقولــي: في المرة القادمة لن أترككَ تمضي دون أن تمالحنا .. ونسيتِ ما بيننا من عذب القبل .

ســألتني فاطمة حين كنت أهم بالخروج عن موعد الحصة

التالـــية فكـــان جوابي الساعة الرابعة والنصف غير أنني جئت مبكـــرا فـــي اليوم التالي سارقا من الزمن نصف ساعة اقتطعتها لأجل حديث يخص كلينا على إنفراد وهو في الحقيقة قد لا يكفيه نـــصف يـــوم كـــنت أرجو أن ألقاكِ فيه لوحدكِ نعم سرقت من الوقت نُزراً يسيراً لحاجتي خلوتك الغريب في الأمر استحالته بأن كـــيف لنا نحن البشر الضعفاء أن نختلس الزمن وهو الذي سرق الـــناس أعمـــارهم فغيبهم عنا تاركاً لنا أمر تدبير أكفانهم وحفر لحودهم .. زمن ظالم لا يعرف الرحمة نحن صرعاه دائماً.

بالـــيوم الثاني فتح أخوك الصغير الباب وأدخلني حجرة الضيوف كالعادة استغللت تأخر حضوركِ في أن أتمعن الصورة جيداً .. هالني غيابها فقد اختفت من مكانها فجأة ولم يتبقَّ منها إلا مـــسمار مثـــبت بالجـــدار كانت معلقة بالأمس عليه .. عند حـــضورك كنت تحملين قهوة كالعادة فقلت لكِ: كان عليكِ نزع المسمار أيضا .

ـ لماذا؟

ـ لأنه يذكرني بأنه كان يحمل غريمي أقصد ابن عمكِ .

ـ لقد أبقيته عمداً .

- لم أفهم .

- قد نحتاجه يوماً فتكون لنا صورة نعلقها فيه .

- أرجو ذلك .

- قد يحدث، ألم يكن وجودكَ هنا مستحيلاً ثامناً ممنوعاً من المثول ولو بصيغة حلم فتحقق كواقع .

انقضى شهران لتبتدئ بنهايتهما الامتحانات .. ترقبنا النتيجة سوياً ما يزيد عن ستين يوماً فكانت تلك فترة كافية لأن تتعود فيها رجـلاي المكان رغم كوني لست بهاشمي إلا أنني صِرت من آل البـيت !! حـيث نُـودي عليَّ باسمي مجرداً دون ألقاب كاذبة قد انتحلتها سابقاً لأجل المناسبة .. أُلفة حلت بيني والجميع .

أسعدني خبر نجاحك .. لا بل نجاحنا معا أتدرين لماذا؟ لأنــنا اقتسمنا كل الوقت مناصفة بين تحصيل وتحصيل فكانت النتـيجة المفرحة بحصولكِ على شهادة التخرج بتقدير رفيع .. بعد فترة ليست بالقصيرة تسارعت فيها الأيام ومضت من فوقها الأحـداث سـألت خلالها والدكِ الكريم بأدب جم لا يخلو من طـرافة بأننـي أملـك بيتاً متواضعاً ومرتباً يكاد يفي بقناعاتي البسيطة ونصف دين .

نعـــمِ أذكر ذلك جيداً وأنك استطردتَ قائلاً بأنكَ تحتاجني لتكملته كنتَ ساعتها تشير عليَّ من بعيد .. نعم وكم كان كريماً حينما كرر مقولته السابقة (البيت بيتك) يا عبد القادر.. أسكننا معاً من خلال قولته تلك حين تطرق للمهر قال: شهادة النجاح تكفيني أود تعليقها هناك مشيراً حيث المسمار عالق .. مقترحاً أن يكـــون العرس بعد شهر تقريباً وهي الفترة التي بالكاد تكفي لتدبير استعدادات المناسبة مبدياً عدم ممانعته في قدومي للزيارة متى شئت .

غزو العراق

بيــنما كانـــت تلك العائلة الكريمة تستعد للفرح بتزويج ابنتهم البكـــر وبنيلها شهادة النجاح .. كانت أمريكا بالجانب الآخر من الحـــدود قد أكملت استعدادها أيضا لغزو العراق بعد أن أنهكته بحصار خانق دام عشر سنوات جاوز بقسوته السبع العجاف ولم ينتبه العرب الموصوفون بالفطنة لذلك !!

ســاقت وســائل الإعلام وجميع الفضائيات أخبار اندلاع الحـــرب بـــضربة جـــوية وصاروخية مصحوبة باكتساح بري لأرض الـــرافدين تمترســـت الفاجعة بعيني التي جفاهما النوم متتـــبعا خسارات أمتي المتتالية ابتداء من سقوط غرناطة المذل وفـــق مقولة (ابكِ كالنساء ملكاً لم تحافظ عليه كالرجال) وما عثرنا عليه من خزي مدون بكتب التاريخ عن بيع سبته ومليلة بأقاصـــي المغـــرب الكبير مرورا بالمُعاش في فلسطين السليبة حالياً وصولاً حتى العراق .

بُحت جوليا المسكينة وهي تنادي (وين الملايين) هالني أن لا مجـــيب رد نـــداء الاستغاثة إلا فرادى من بني يعرب قد تسللوا عبر الحدود خلسة فوصلوا منهكين، بعضهم تقوده النخوة والآخرين قدموا لتصفية حساب قديم كاد أن ينسى .

نقلت محطة الجزيرة أخبار(أم قصر) واستبسال مفرزة

مـــن الجيش العراقي الرابض بها واصفة ما جرى بتلك القرية الحدوديـــة بأنـــه ملحمة تفوق الوصف مبينة أن القوات الزاحفة قادمـــة مـــن أرض الكـــويت بعـــد أن رفض البرلمان التركي المشاركة بتلك الجريمة رغم المغريات التي قدمت بشأن الوعد بالمـــوافقة علـــى إدخالها منظومة الاتحاد الأوروبي الأمر الذي سال له لعاب دول كثيرة من أوروبا الشرقية فانضمت للتحالف مقابـــل الـــسماح لهـــا بالجلـــوس على مقاعد الاحتياط للنادي الأوروبـــي وتناول بعض من ساندويتشات (الهمبرقر) ريثما تنتهي اللعبة .

انـــتقلت عدوى رحى الحرب القذرة عبر التلفاز لتشتعل بـــين محطتـــي CNN وBBC اللتـــين زعمتا أن أم قصر قد تم احـــتلالها وبـــين محطة الجزيرة والتي أفاد مراسلها والموجود بعين المكان أنها لم تسقط بعد وقد استمرت تلك المعركة سجالاً بـــين كر وفر ليعلن في النهاية وبعد انقضاء تسعة عشرة يوماً عن سقوط أم قصر والاستيلاء عليها من قبل العدو كُنت طيلة المدة السابقة أتسقط أخبار تلك الحرب من عدة مصادر مستعينا بـــأطلس الجغـــرافيا لتعيـــين إحداثيات ضياع قرية صغيرة من خارطة الوطن .

ثمـــة أحـــداث جـــسام تنتـــزع موقعها بقوة فتتخذ لنفسها الصدارة لما لها من أهمية الأمر الذي جعلني لا أجد العزاء إلا في الكتابة للصحيفة التي أتعامل معها فبعثت إليها بنص يصف حالـــة عربي يُساق له خبر نعي أمته تحت عنوان (الوصية) كنت قد كتبته بعد استيلائهم على أم قصر جاء فيه:

لأنه لم يحتمل الفاجعة من هولها هوى .. لم ينطق بشيء .. ذُكِر بالتقرير الطبي أن أسباب الوفاة سكتة قومية .. المتوفى لـــم يـــشكُ سابقا من أية أعراض بالقلب كانت تلك هي العبارة الأخيرة بالتقرير الذي أقفل بعلامتي تعجب بدل النقطة المعتادة .

أفـــاد ابنه الصغير لأقرانه بفناء المدرسة أن أباه قد وعده بـــشراء دراجة (إن نجح العرب بالاختبار) !! .جيرانه أبلغوا أنهـــم لم يشاهدوه طيلة الثلاثة أسابيع الماضية غير أن زوجته أفـــادت للمعزيات بالمناسبة أنه أعتزلها بمقدار زمن العدوان .. مضيفة بأن الراحل كان بالفترة الأخيرة قليل الكلام والأكل كثير السهر وأنه لم يطلب منها شيئاً عدا كوب ماء بين الحين والآخر قالت: كأني به يطفئ حرائق الهزيمة التي اتقدت بصدره .. كان يـــبلل تـــشقق شفتيه وجفاف حلقه ليس إلا .. أفادت بأنه شارك أبـــناء أم قـــصر نـــصرهم الوجيز ثم انكفأ لاحقاً مجهشاً يعلوه

الشحوب ولم ينطق من جديد كأن القول لم يعد يفي الكارثة حقها المساوي لها بالفداحة .

يوم دلفت عليه الباب وجدته يبكي بحرقة الذي فقد ابنه ليلة زفافه يوم أن أذيع أن قوات العدو دخلت المطار ولم ينتحر أي منهم متمتماً ببعض العبارات منتحباً .

في اليوم التالي لذلك لاحظته المسكين منزوياً بركن الغرفة يختط شيئاً بكراسة الصغير ممتشقاً قلم رصاص راسماً به عبارات مدوية في زمن الصمت القبيح قائلا: إن بعضهم أستأجر منه العدو موضعاً .. وآخر باع له موقعاً وسواهم هز لهم ذيله ترحيباً بمقدمهم الميمون متبرعاً عن طيب خاطر بثلثي الإمارة التي ورثها والرعية عن جده .

قال عنه صديقه: أن المسكين انتصر على الموت ألاّ يموت مرتين تاركاً لأبنه الصغير صاحب الكراسة وصية مقدارها سطرين يقول فيهما: إرثك عني يا بني نصر لن تطاله إلا بالثأر والثورة وآية استدنها من كتاب الله العزيز مفادها: ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾. أبوكَ .

أصابني الهلع من الصمت بذهول .. بت أسمع صوت دوي عجلات قطار الموت فوق القضبان الحديدية قادماً نحوي

نمت والضجيج يملأ أُذني بالصباح أودعت نصي السابق مكتب البريد .. عرجت أثناء رجوعي على المقهى والذي كان ساعتها مكتظاً برواد جدد كانوا متحلقين صوب التلفاز يتتبعون تصريح وزيـــر الإعلام السيد محمد سعيد الصحاف رثيت لأمةً انطلت علـــيها لعبة الخطابات الحماسية فأدمنتها ولم تنتبه بعد فتصحو وتتعظ ففي حزيران باعها الوهمَ أحمد سعيد وهاهي اليوم تشترِ البضاعة نفسها من محمد سعيد .. بين السعيدين شقيت أمتي .

كـــان صديقي علي لحظتها يقتعد بالمقهى ركناً بعيداً نائياً بنفـــسه عن مكان التلفاز .. كان ساعتها يرقب الهرج من على بعد فألتفت إلي بعد أن بصق على الأرض وقال :

الأغبـــياء لـــم يـــشبعوا كذباً .. أنظر .. أنظر إليهم وهو يـــصفقون له أبناء ال ... مترنماً ببيت صريح العبارة للشاعر مظفر النواب يكاد من قبحهم لا يفيهم ما يستحقون من وصف .

أبـــدى علـــي أسفه حيالي لأنه لم يطلب لأجلي شيئا وأن أبـــناء ال .. أعادها ثانية أنسوه واجباته فنده على النادل والذي كـــان منـــشغلا أيضا بخطاب السيد الوزير فطلب منه قهوتين وكوبـــي ماء أحضرهما بعجالة ما استرعى انتباهه فنهره بشدة لافتاً نظره بأنه لم يقم بطهي القهوة كما ينبغي فرد النادل بلباقة

.. بأن نار الفحم التي يطهو عليها قد خَبَتْ بل تكاد تنطفي خاتماً قـــوله بأنه لم يعد ثمة ما يستعر !! وأن المغني ذلك الكفيف قد كذب على الجميع حين أدعى أن (الأرض بتتكلم عربي) .

- معك حق ضعها هنا وشكراً .

أثناء جلوسنا سألني علي عن رأي .

- في الحرب .

- لا في كلام النادل .

بالطبع كلام النادل أصدق من تصريحات وزراء الخارجية العرب بمؤتمراتهم الصحفية التي يعقدونها أمام عدسات التصوير ووسائل الإعلام .. ألم تسمع وزير إعلام مملكة الديرة وهو ينعق بأعلـــى صـــوته بأنه سيجعل الماجدات العراقيات ينزلن الشارع بعـــشرة دنانيـــر .. ونسي ابن ال .. أمساً ليس ببعيد استنجد فيه بـــنخوة الرجال واصفاً إياهم بالنشامى يوم ذادوا عن الديرة وهم يـــدرؤون خطر الفرس عن بيته غاضاً الطرف ولم يذكرها تلك اللحظـــة التي احتمت فيها زوجته وابنته بجسد لجندي عراقي .. وأنا أغادره ودعته بحرارة شاكراً وممتناً له استضافته لي فاعتذر وهو يقول: على العموم هي باردة .

- لا تقــل ذلك فكلام النادل أشعلها .. أوقد فينا شيئاً من الانتماء المحرق .

- القهوة تقصد؟

- لا يهم .. أراك غداً .

- إن شاء الله .

كان علي أن أعود لأكتب إحساسي وما عشته متأثراً بما قالـــه عامل المقهى مستلهماً من حديثه نصاً آملاً أن يحوز على رضـــى الـــسيد رئيس التحرير باعثاً من خلاله حالة إستنفارية فكان مما كتبته:

بمداد الحزن يا صديقي أغمس عود قصبك مدوناً عبارة أكبـــر من أن يسعها سطر .. عمَّ حذا بالمنية أن تباغت الشاعر مبكراً وهو يحيك بخيط الحروف ظافراً قصيده فتأخذه غرة بعيداً دون أن يكمل نسجها .

مات حائك الحروف مضفر الكلمات إخوتي فمن يكمل الذي بدأه من منكم يعلم الذي بصدره كان يجول .. بل بماذا كـــان يهمس لنفسه سراً أيكم سادتي عاش محنته؟ فارسم يا صـــديقي على قرطاسك موكبه الجليل خِط له من الصمت

كفـــن .. ســـطر جنازة مهيبة .. فأبلغ النطق ألا تقول شيئاً بحضرة الموت .

فقط أحفر للمُسجَّى بصدرك لحداً مردداً أبياته علّه يسمعها مـــن العـــناء يستريح فكم هو رحيم الموت يا صديقي لمن طال تجوال شقاه ودعِ السواد عنك فلم يعد صالحا لإبداء حزن .. ما عـــاد حـــرياً أن يستمطر من الغيم دمعه .. ما عاد يلزم سوى انحناءة هامة تليق بفداحة الخسارة .. حمل روحه السلام لتقرئه لمن سبقوها سفراً أبدياً .. سلها أن تخبرهم عنا بأن الرافدين جفا بعـــد أن عقرت سما ء العرب الهطول وأن الجوع ذلك الوحش النهمي يقتات القوم هنالك .

أخبـــرهم بأن جحافل التتار عبرت إليهم من ممالكنا سالكة مـــسارب عربية وأن أبناء عمومة لنا استضافوهم بـــ (الديرة) وأنهـــم قدموا لهم بلاد سومر وآشور حضارة بابل برمتها وليمة عشاء بقصعة الخيانة فتداعوا عليها كما ورد بالحديث وأنهم كانوا في وداعهم المخزي ساعة العدوان مرتدين برهان أصالتهم كوفية وعقال .. فأندب معي زمن النخوة وحميم الخصال .

هالني يا صديقي أن الأرض لم تهتز تحت نعالهم الصدئة وأن الزلزال المنتظر لم يقع كما أنبؤونا فحتى أناشيدنا الحماسية

التـــي حفظناها غيباً ورددناها مراراً حتى بحت حناجرنا كانت تغييـــباً .. جــرعات قاتيّة أرضعونا إياها يوم كنا بالمهد نحبو لنكتــشف لاحقاً بطلانها وإلا فكيف لها لا تقوى على إنقاذ من يسعف جريحاً يتأوه؟

يا صديقي لم يعد يجدي القول نفعاً بعد أن اكتشفنا أن (وامعتصماه) مجرد فرية ابتدعها قرشي أصيب بضربة شمس ســاعة ضحى ترنح وبها هذى فكيف تَصْدُق العبارة؟ بل كيف يغشاك نوم ونفس جارك أمارة؟

يـــا صــــديقي لا تـــرفع يديك للسماء طالبا النصرة لأن الملائكــــة الأطهار لن يقاتلوا نيابة عنا لأنهم منشغلون بالتسبيح وفروض الطاعة لأن القضية تحتية لا تعنيهم مطلقاً وأن (عبدالـــسلام) ذلك الولي المبارك المستلقي بـــ (زليتن) لن يخرج منها لملاقاتهم إلا بعد أن يُنفخ في الصور وساعتها (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) .

بعد أن أودعت المقالة صندوق البريد عدت لمنزلي غير أنني لـــم أستطع النوم ليلتها رغم إنهاكي الشديد لما رأيته من استباحة .. تذكـــرت قول الحاج بوبكر صاحب المتجر الذي يجاورني لأنه كان أصدق مني في توصيف الحالة حين خانني

التوفـيق في اختياري للعبارة لحظة قولي له إنها حرب صليبية فـصحح بأنهـا رومية تعتمر (دشداشه) عربية محاكة بدهاء قلّبتُ قوله السابق على جميع الأوجه فما رأيت غير الحق فيه .

أثـناء اسـتلقائي على الفراش تذكرت قول صديقي علي وهـو يهمـسني سراً بعد أن ألتفت يمنه ويسره بأنه عازم على الـسفر للعـراق .. بُهـت بل بت في حيرة من أمره فأنا الذي أعـرف عـنه جـيداً أنه دائم السكر ثمل طيلة أيام الأسبوع لا يـتوقف عن ذلك إلا يوم الجمعة فقط .. عدت أبحث عما دعاه للتفكيـر فـي الـصباح حينما قابلته أفهمني أن اختمار الفكرة مرجعها انتماؤه القومي وأن ثمة ناراً تتقد بصدره حيال كل من تعاون مع العدو واصفاً إياهم بالكلاب العملاء .

أشـدت بإبائه وانتمائه ولم يغب عني السبب الآخر الذي دعـاه للإلقاء بنفسه بأتون العراق حيث وحلت أمريكا دون أن تحـسب لـذلك المستنقع أي حساب كون علي قد تحصل على مؤهله الجامعي منذ ثلاث سنوات غير أنه قد سبق وأشتكى لي من حظه العاثر فقد قال يومها وهو يبثني همومه أنه طرق كل الأبواب بحثا عن عمل دون جدوى، لم تيأسه الأبواب الموصدة فألـتحق بمدرسـة لتعلـيم قيادة الشاحنات وتحصل على إجازة

السياقة .. جرب حظه هذه المرة كسائق لم يوفق أيضاً أبى رغم إلحاح الحاجة أن ينخرط في بيع الممنوعات أسوة ببعض أقرانه فقــرر ببساطة أن الموت بالعراق أفضل من العيش هامشياً .. كــان مــن ضــمن الأعمال التي امتهنها غسيل السيارات بأحد المستودعات البعيدة عن سكنه حيث لا يستطيع أحد التعرف إليه هــناك متواريا عن الأنظار .. بذلك كان المسكين يداري سوءة حظه بملابس رثة مهترئة تفوح منها رائحة الزيوت .

روى لي التعيس سبب تركه للعمل فجأة حيث قال أنه كان يدفــع الكثير من شبابه وكرامته وعافيته ويقبض القليل فيستلم ديــنارا مقابــل كل سيارة ينجزها باقي المبلغ كان يذهب لجيب صــاحب المستودع الذي يعود ويقتسم معه الإكرامية والتي قد يجــود بها أحدهم .. أسر لي يوما أنه أصيب بالتبول اللاإرادي وأنه قد فعلها مرتين بالفراش فنصحه الطبيب بترك العمل فوراً بــناء على التحاليل التي أجراها بالخصوص والتي أتضح منها إصــابته بالروماتــزم .. بعــد مدة ترك العمل ليس بناء على نصيحة الطبيب كما تبادر لذهني وهو يحدثني أول الأمر:

حسناً فعلت الطبيب أدرى منك ومني .. صحتك بالدنيا يا أخــي فقهقه موضحاً أن أمراً آخر أكثر إلحاح أضطره لذلك .. حين سألته ماذا يقصد قال أ تذكر فرج صالح .

ـ لا .. من هو .

ـ مــن كــنت أغششه بامتحان الشهادة الإعدادية أنسيت الغبي الدلوعة .

ـ آه تذكرته ابن جاركم القديم لم أره منذ زمن هل قابلته؟ أقصد أين عثرت عليه .

ـ أولاً أنا لا أملك الوقت لأقابله، هو من قابلني وبالتالي هــو مــن عثر علي ـ فيه الخير .. حين تذكرك وقام بزيارتك .

جــاء المستودع من أجل سيارته الفارهة والتي للتو كنت قد فرغت من غسلها .. كنت ساعتها أوشك أن أنهي تلميعها .. كــنت رثــاً وكــان أنيقاً أحمل شهادة جامعية .. يحوز إعدادية شــاركته فــي نيلها أ تذكر أنني كنت أحرسه من الصبية وهم يعترضون طريقه ذائداً عنه؟ وقف متعالياً يرمقني ممعناً النظر إلــيَّ بسادية .. لمحته يتأفف منِّي .. العفيف ابن العفيف !! وأنا معطــر بــرائحة العرق والزيوت المحروقة .. كان يلبس بذلة ســوداء كانت ملابسي أيضاً من الزيوت سوداء .. كان يضع ربطــة عنق أنيقة .. عنقي يكسوه العراء .. كان حذاؤه يعكس الشمس كمرآة بينما كنت حافياً مُدمى الأصابع .. يعبق .. أفوح

بعطـــن كجرذ سقط بماء .. ابن الذي صار وجيهاً فجأة .. من علـــية القـــوم والصفوة غدى .. كريم اللئيم الذي تحايل بخبث ودهـــاء على القوانين الاشتراكية ملتفاً عليها .. من رفع الشعار بـــوجه غيـــره مستثنياً بألا وما عدا نفسه .. ابن المقاول الذي أرسى على نفسه عطاء تشييد مسجد للأوقاف بعد أن دفع رشوة للجنة وصلى به يوم جمعة افتتاحه وليد المرحلة مباه بمضارعته ماضـــيه نسى .. آه يا صديقي ليته ما جاء .. لم يقم بمصافحتي لـــئلا أدنسها الطاهرة يده .. ثمة يد يحبها الله تذكرته الحديث .. كـــان يخبئ يمناه بجيب بنطاله وقتها أما الأخرى فقد كان يشير بهـــا بـــين الحـــين والآخر لبعض الجوانب ليتم دعكها جيدا .. أنقدني دينارا ومضي منذها أقسم لك بل من ساعتها تركت .

قـــال لـــي أنه أعتكف ببيته منذ تلك الحادثة كمن ينتظر وحـــياً من السماء غاب عني عدة أيام .. حين لقيته سلم علي وأخبرني بأنه وُفِق في استدانة مبلغ الرحلة حتى الشام من أمه التـــي باعت أقراطها والتي سبق أن ادخرتها لتحج بثمنها كان آخـــر ما تملكه من حلي تلك الحلقات القديمة روى لي أنه قد نجح في استمالتها بقوله أنه يود الالتحاق بجامعة حلب معترفاً بأنـــه لا يـــشعر بـــأي ذنب تجاهها وأن فريته كانت صغيرة

وبيــضاء مــضيفاً بأن مقصده يتجاوز نية والدته تلك العجوز المباركة مستنداً لحجة أن الغاية تبرر الوسيلة حتى أنه قال أن ثمــة ركــن لا ضــير فــي استبداله مؤقتاً بالجهاد باحتسابه ضرورة ملحة وفق مقتضيات الحال .

لا تقلــق قالها عندما لحظ اندهاشي من وقع كلامه علي بأن ثمة من يتولى تهريبه عبر الحدود وتلك هي أخطر مراحل الــرحلة .. قبل أن يودعني يومها قال: أن أمامه أربعة أيام لا غير .. وأن علي أن أفكر في الأمر ملياً.

نداء جوليا

بالمساء فتحت التلفاز وإذ بجوليا من جديد تسأل (وين الملايين) ارتعبت من النداء الذي خلت أنه كان موجهاً لي بالتخصيص .. عدت وقلت لمَ لا وأنا أحدهم سيدتي .. اعتذرت منها بأن مريم تنتظرني على شوق ولهفة فردت علي جوليا تقول: في صدري مخزن رشاشة وأنقول خوتي وين .. وقع العبارة أخرسني فلم أجبها .. أكملت هي من عندها وكأنها كانت على علم بعجزي:

(جاه النوم ونام الباشا ونحنا امشردين) .. أستثنيت نفسي فقد كانت توجه كلامها للباشا مباشرة كانت تعني المشخرين الذين يغطون أولئك الذين توسدوا السبات آل كهف العصر أعلم أنها كانت توجه كلامها لكل الباشوات العرب .. الوزراء والوكلاء .. أصحاب المعاطف السوداء إلى آخر السلسلة الوضيعة أبناء ال .... كانت تقصد كل أمراء العرب وخصيانهم أيضاً من بني نهبان وحفدة النجديين الأشقياء وأولاد المساء المكنون بالصباحيين احترازا .. كانت تعني كل الطرشان ساخرة وهي تصفهم بأنهم:

(قوة تستعرض في الشاشة صفت للتزيين) مبينة بأن:

(الثورة رجال ما تشرى بالمال) لتعود المسكينة بعد أن يئست منهم ولا مجيب فتقول: (الله معانا أقوى أكبر من بني صهيون .. يشنق يقتل يدفن يقبر أرضي ما بنهون) مبينة أن (الدم الأحمر راوي الأخضر في طعم الليمون) .. لتخلص بالنهاية بأن: (نار الثورة تقوى تسعر نحن المنتصرين .. وين الملايين .. وين الملايين) .

أنا أحدهم يا من تصرخين .. فرد ممن تنادين .. أنا أحد أولئك هزه النداء .. هده الإتكاء .. قحطاني بربري يتلحف العار عباءة .. أنا كل أولئك معاً ومعَ .. وتذكرت فجأة قصيدة كنت قد كتبتها سابقاً ولم يسعفني الحظ بحفظها، بعد بحث مجهد وعناء عثرت على الورقة المكتوبة عليها يعلوها الغبار مرسوم عليها بصمات لدوائر يشير عددها لما استهلكته من فناجين القهوة التي تجرتعها أثناء نظمها قرأتها جهراً وكأنني أرد بها على جوليا .. طبعاً اختياري ل (بيض الديوك) اسماً لها لم يكن بالمصادفة وقد قلت فيها مخاطباً طفلاً عربياً يحبو بمعنى أنه لم يشب بعد على الكذب والرياء مخاطباً إياه بقولي:

يا بني .. لا تقتفي خطانا

وأبحث عمن يتبناك حتى تكبر عن سوانا

فمسيرنا يفضي لماخور تسكنه بغايا

يقطنه غلمان فوق تكايا

وأقنان يعبئون الأقداح خمر

لا تنتسب إلينا فنحن عنوان الخزي .. سبة العصر

لا تقل بأنّا ذويك كنا

وأنك من أصلابنا أتيت

قل إن السفاح أبوك

قل إن الله وكفى من خلقك وسواك

وأنك مضغة لا تعلم من بالدبر ألقاك

قل إنك جرو

كلب أحدهم كنى نفسه أباك

أو أنك بيضة

لا تعرف أمك من وفرة الديوك المخصية من دحاك .

جولـــيا .. أوصلك دفاعي بأنني لست ممن تعنين .. فرد

من الرعية عقاله بيد سيده .. أنا مولى من الموالي لذاك الأمير الهاشــمي العلــوي النــسب صاحب الكرش المنفوخ بما سرق وأكتسب .. عبد لصاحب اليد الطولى التي لم تطلها بعد ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾.

لــم تنفك الذاكرة تراودني عن نفسي فيتناهى إلى سمعي صــوت من الغابر يقول: جزيرتنا تنادي .. جزيرتنا تنادي .. بالــشهامة بالكــرامة بالعروبة ومجدها متسائل عم إذا كانت السيدة فيروز قد تنبهت في أن تُعدّ شيئاً يخص بغداد على وزن ومــنوال زهــرة المدائن باحتساب بغداد حديقة المدن .. عدت وقلت أظن الخيبات المتتالية قد أخرستها .

التسوق

بـــذات المحل الذي التقينا بحضرة واجهته الزجاجية أتت يقـــودها التفاؤل وكأنها تزور قبر ولي للتبرك .. كيف لا وهو صاحب الفضل والمنة عليها، وقفت مريم مع أمها صحبة أختها الصغيرة .. دلفت إليه منشرحة الملامح مقبلة على الدنيا بسعادة لا توصـــف .. لمَ لا وهي القادمة لانتقاء لوازم ليلتها التي طال مـــا انتظـــرتها طويلاً .. بعد أن حيت صاحب المحل بأدب جم سألته عن أحدث فساتين الزفاف

ـ بذلك القسم سيدتي .

مشت وراء عاملة المحل والتي بدأت تعرض عليها بعض الموديلات التي وصلت من تركيا حديثاً .. أجرت عدة معاينات أمـــام ذات المرآة التي وقفت قبالتها يوما .. ها هي تكررها من جديـــد وكأن الزمن أصيب بالكساحِ فلم يمضي منه إلا برهة أو حين .. تمنت أن يطل عليها مكرراً فعلته الجميلة، كم رغبت أن تعود عقارب الساعة للوراء .. ها هي المجنونة تسأل المستحيل المثول مرة أخرى أن يخر بين يديها امتثالاً ملبياً شبقها المحموم لرؤيته .. سألتها الحاجة مبروكة :

ـ فيما سرحانك يا مريم؟

- الفستانين .

- أيــتها المجــنونة كم هم عدد عرسانك؟ فستان واحد لعريس واحد ترتدينه لليلة واحدة لا أكثر ثم تُودعينه بعدها خزانتك كذكرى لليلة جميلة قد تحتفين بمناسبة ذكــراها فتلبسينه أو تعيرينه لأختك الصغرى تفاؤلاً منكِ بأنه سيجلب لها السعد فتفوز بمن تحب يوم يتقدم لها أحدهم .

- سألت البائعة عن اسم عطر معين .

- ولكنه عطر رجالي .

أعلــم ذلــك .. أضيفي زجاجةً منه لقائمة المشتريات .. فبلغت جملة الحساب 890 ديناراً الأمر الذي حدا بوالدتها الحاجة مبــروكة أن تترحّم على تلك الأيام معترفة بأنها لم تكلفها يوم زُفت لأبيها إلا (رداء عمل) رخيص الثمن ومحرمة عادية من محلــج (شفيق) إضافة إلى (سورية) نوع (شولاكي) و(رقعــة) اشــترتها لهــا أمها من أحد الخرازين الذين كانوا يفترشــون سوق الظلام صحبة بضائعهم .. آه يا بنتي تلك (الشروة) لم تكلفني سوى سبعة جنيهات نسيت أن أذكر لكِ أن من ضمنها لوبان عربي وقليل من الفاصوخ والوشق للاتقاء من

الحــسد إضافة لكيلو حناء عربية .. آه يا بنتي كبرنا فجأة ولم نفطــن للأمــر حتى جئتِ وأخوتكِ لهذه الدنيا .. ما أسرع عدو هــذه الأيام كأن عفريتاً يطاردها .. شد حديثها صاحب المحل والــذي عقــب قــائلاً: الله يرحم أيام زمان لقد استبدلوا اسمه فأصــبح سوق النور .. رجال البلدية وبعض من حديثي النعمة تلاعــبوا بالعنوان مضيعين مضمونه الشعارات يمكن ترديدها ببــساطة ورفعها فوق أي جدار متى شئنا .. غير أن الصعوبة تكمن في تنفيذها وهو الواجب المقدس الذي استعصى عليهم فما كــان مــنهم إلا أن حملــوه لــوحة وهتفوا به قولاً متمرسين بأطمــاعهم خلــف ترديده، هم من استغلوا اسمه التنويري كي يشعلوا به نارا شريطة أن تطال غيرهم .

بعد أن أقبضت الحاجة صاحب المحل استودعته قائلة: إن شاء الله ديمة عامر .

للعودة استقلوا سيارة أجرة .. لم يفت مريم فرصة رؤياه ولــو من بعيد فاقترحت على السائق أن يسلك طريقاً معيناً غير أنــه نبهها لعدم إمكان ذلك لازدحام المرور بتلك الساعة إضافة إلى كونه يقع بالجهة المعاكسة لعنوان مسكنهم .

تحــت إصرارها وإلحاحها عليه أنحرف بسيارته متتبعاً

إبهامها الذي كان يشير دوماً لجهة اليسار كقولها الشارع الرئيس الـــذي يقع يسار الجزيرة ثم الانعطاف شمالاً من الفتحة الثانية والــسير بمحـــاذاة الشجر عند طرف الرصيف الشمالي يقابلك مقهى يقع يساره .. هدئ من سرعتك لتقف قبالته المصادفة أنها كانت يومها ترتدي بلوزة حمراء .

يا سيدة المصادفات والتراشق العفوي .. لكِ العذر فالقلب أيــضا باليسار منا يقع .. حتى أن علم التشريح القديم أثبت أن ذلك الجزء من الجسد البشري في حالة شطره نصفين أثقل وزناً مـــن مثيله الأيمن من تلك الحكمة استلهم العاملون بفرق البحث عـــن التائهين بالحقول النفطية في الصحراء فكرتهم فيستهلون بحثهم عمن يتوه بالاتجاه الشمالي بدءاً وعادة ما يعثرون عليه بيـــسر هناك .. وبما أن لخفق قلب المحب دقات أكثر من غيره فالأمـــر يفضي به في النهاية أن يكون انحرافه صوب الشمال أكثر ميلاً وأشد وضوحاً .

كـــان علـــيها أن تكون أكثر سعادة من غيرها فَلِمَ تعود بملابس فرح يكسوها الحزن؟. ألكونها أخفقت أن تشتري رؤيته ولو من خلف زجاج لسيارة تستقلها .. هاهي المرايا التي أنجبته يوماً تتبرأ منه !!

ولولت الزغاريد بالمنزل لحظة ترجلها من السيارة عائدة من السوق محملة بأكياس كبيرة الحجم .. بدأت الأم في استقبال تهاني الجارات الواحدة تلو الأخرى .. تناثرت الأمنيات الطيبة بأرجـــاء المنـــزل فهذه تقول: "العقبة لخيتها" .. وتلك تتمنى لها الراحة والهناء .

بـــدأت الحاجـــة مبـــروكة في استعراض ملابس ابنتها العـــروس بتـــباهٍ مقـــصود بنية المفاخرة وهي تعلن أسعارها بصوت مرتفع كأنها تسمع البيوت المجاورة لمنزلها لا النسوة اللاتـــي يقتعدن الفرش بجوارها ولم يفتها تلك الأم الودود أن تـــبالغ في قيمتها الحقيقية قليلاً بقصد ليس هو بخاف في مثل هذه الحالات .. كانت منتشية فرحاً وهي تعرض ملابس ابنتها العروس بزهو عارم .

سادية التحالف

أغلقت جهاز التلفاز لعدم قدرتي على احتمال رؤية مشاهد الــدمار والقتل العبثي جراء القصف العشوائي والذي طال حتى أشجار النخيل التي لاحت بعد انجلاء سحب الدخان أن رؤوسها قــد جُــزت عنها فتطايرت بعيداً بفعل الشظايا المميتة .. تلك المــباركة التي أطعمت مريم وابنها .. استعنت بجهاز الراديو للتخفــيف مــن دموية الأحداث مكتفيا بالصوت وحده .. تسمر مؤشــر المذياع مكانه وكأنه جندي وقف استعداداً لحظة عزف النشيد القومي عند قول المنشد:

(أخي جاوز الظالمون المدى فحق الجهاد وحق الفداء) ليتــساءل قائلا: (أ نتركهم يغتصبون أرض العروبة والسؤددا؟ وليــسوا بغيــر صــليل السيوف يجيبون صوتاً لنا أو صدى) واســتمر يقــول: (فجــرد حسامك من غمدهِ فليس له بعد أن يغمــدا.. أخي أخي أيها ال ..) ضاع اسم المنادى وكأن الأثير لــم يعد يقوى على ترديد النداء لعدم اكتراث المنادى بما يجري مــن حوله .. عدت وأرجعت أسباب انقطاع الإرسال فجأة بأن قذيفــة قــد أصــابت هوائي الإرسال، لم أجد والحالة على تلك الــشاكله مفراً إلا أن أشتري من غيض المحنة وفيضها إغفاءة

ابتعـــتها مـــن ســـوق الهـــزائم المتتالية بموسم رواج الانكسار والخيـــبات المـــتلاحقة مـــن مـــزاد الصمت القبيح متذكراً قول الإعرابي وهو يصرخ بوجوههم الكالحة .. يا قوم .

قبل النوم خطر لي أن أتقيأ مرارة ما بحلقي جملاً فاختط مـــنها ســـطوراً حِرتُ في من أستأمنه بوحها فاستقر رأيي هذه المـــرة على أن أختص بها طير كونه الوحيد القادر على حملها بأمانة تحت إبطه الأيسر فقلت له :

أيهـــا الطائـــر المسافر إلى لا مكان في الزمن المتوقف المشلول جيئة أو ذهابا .. أنقل سلامي للذين يعانون الحصار .. جوعـــى البدن أبناء الوطن أغنياء النفس الذين يمتشقون الصوم عـــزماً وســـلاحاً .. بعد أن تقرئهم سلامي الخجول قل لهم بأن النـــصر قادم .. لمحته بشارة بأكفان الشهداء سمعته نطقاً من شـــفاه الجـــروح .. قـــسماً وثأراً نارياً يتأجج بصدور الرجال بهامات من حملوا نعوش الفداء قرابين القضية .

أيهـــا المغـــرد بالكون الفسيح .. طائراتنا مغلولة الأجنحة جاثمة تعانق الانبطاح تقبيلاً عناقاً مذلاً حتى علاها مشيب الصدأ .. أمـــا مدافعـــنا فتـــشكو من قلة الانتصاب تعاني العنة داءً .. بفوهـــتها عششت عناكب الخنوع فاستلقت آمنة الجانب .. رأيتها

بعيني .. سمعت شخيرها وهي تغط في نوم عميق جد مخزٍ .. لم أستطع مقاومة اجتياح النوم لي فسقط القلم من يدي ليرحل بي صحبة خيالاتي فرأيتهم حُلماً ينظفونها .. يقيسون زاوية الرمي مدققين بإحداثياتها فأخذني المشهد .. كبرت جهراً .. انتفضت معزياً نفسي المهزومة بأن ثمة بقايا نخوة لدى بعض القحطانيين، هالني أن داناتها كانت لحظتها دون رؤوس فأتضح لي أنهم بدويها يودون شتم العدو بعد أن بُحت إذاعاتهم سباباً .

تراءى لي والله أعلم أنني أبصرت طفلاً .. لمحته ممسكاً براية عروبية تخص إحدى ممالكنا .. التفت نحوي عندما لحظ اندهاشي قائلاً: اليوم يا سيدي تحل الذكرى السنوية لميلاد سمو الأمير المعظم وبعد شهرين من هذا التاريخ سيكون عيد الاستقلال .. أما بآخر عامنا المجيد هذا سنحتفي بعيد جلوسه .

- سألته من .. على ماذا؟

- أجابني أميرنا على العرش .

ألم يتعلم الجلوس بعد؟. أ قعيد أم مصاب بكساح؟ لم يجب فسألته عن فلسطين وإن كان لازال يذكرها أم أن احتلال العراق أنساه ضياع القدس؟ أبطأ كثيراً إلاّ أنه استدرك فقال نعم

تذكرتها الآن فقد قيل أن بها مسجد وعنعن لي عن مدرسه عن أبـــيه عـــن فقي الجامع عن عبد المطلب عبارته الشهيرة (إن للبيت ربّاً يحميه) .

نجحـــت فـــي الاستيقاظ بسرعة مُمسكاً بطرف الحلم ألاّ يهـــرب مني أو تخونني الذاكرة فيعجزني استحضاره من جديد بنية أن أستغل نصه العجيب وتوظيفه بالمقال .. هاهي المأساة تذكرنـــي بما كنت قد نسيته بعد أن حفظته يوم كنت صغيراً من بعـــض الآيـــات القرآنية فحضر قوله تعالى (ترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) .

قابلـــت الـــنص المقدس بما نقلته لي شاشة التلفزيون .. رأيـــت قومـــي صـــرعى جثث مفرغة الأحشاء .. لمحت نخل العراق وقد جُزت رؤوسها أيضاً أضنتني مقارنة الشجر بالبشر بدورٍ وديار أضحت ركام حجر .

حزمت أمري وأمتعتي مقرراً الذهاب إلى صديقي علي، لم تفتني فكرة المرور عليها لأبلغها بأمر الرحلة ولكني خفت أن يشدني اللقاء فيثني كلامها عزمي وتخور قواي .. جَبنت لقياها .. فتركت لها مكتوبي موجزاً لاستعجالي قائلا فيه:

السفر

تلميذتي الجميلة ألم تصفيني يوماً بأنني أستاذ .. رفعتني بقولكِ هذا لمصافٍ سامية يوم أسبغتِ علي ذلك الوصف الجليل .. ألــم نــتحايل معاً فنحيكَ سوياً تلك اللعبة بأن أدخل منزلكم مُــتلحفاً ذاك اللقــب كــي تنطلي تلك الحيلة على والدكِ الكريم فيــستعين بــي راجياً وبإلحاح أن أعطيكِ حصصاً خصوصية ففعلــتها بأمانــة مُستغلاً الوقت الجميل الذي قضيناه سوياً بين تحــصيل وتحــصيل فكانت النتيجة المبهرة نجاحك بامتياز بل نجاحــنا معــاً في تخطي أسلاك شائكة من شرقياتنا التليدة .. تلميذتــي الجميلة لم أعد أقوى على الإنفكاك من ذاك اللقب .. غدا قيدي .

تلميذتي وكأستاذ على سبيل استعارة اللقب والعبارة فلابد لمن يود أن ينال هذا الشرف باستحقاق أن يكون مِثالاً وقدوة لتلاميذه .. عليه أن يجري التجربة والتطبيق العملي أمام طلابه وبحضورهم .. ألاّ يكون مُدعياً تنظيرياً .. من نبلي وهبلي أنني خُلقت ونشأت هكذا .

حبيبتــي بين ندائك لي وعراق يستغيث بصوت النزف المنــسكب بالــصور المروعة .. بالأحرف الحبيسة .. بمداد

الـــوريد الذي أنكتب بها / عاجل إلى كل أبيّ وكفى / وقفت حائراً فكلاكما قضية .. حبيبتي كي أنالكِ وأستحق لقبكِ الكريم بجدارة قررت إجابة المُلِح فكان السفر لبغداد تاركاً لكِ ما بين يـــديكِ .. حقيـــبة دفاتـــري بها بعضٌ من بوحي مسطراً على قصاصات ورق وثقت منها بألاّ تشي بي أستودعكِ إياها كأمانة لحين قد يطول .. لا أعرف متى أعود لأنني لم أذهب بعد .. أعـــدكِ بـــأن لا أطيل الغياب فسامحيني وترقبي أخباري ولا تنسي دعاءك .

الهمـــم مـــثل السيوف تحتاج لشحذ .. تلك الجملة البليغة تبـــرع بهـــا سائق الحافلة الصغيرة التي أقلتنا من دمشق حتى الحـــسكة .. لم يكن من بين ركاب الحافلة عراقي سواه فقد كان مناضلاً وسائقاً ودليلاً .. ركاب الحافلة كانوا يتكونون من ثلاثة جزائـــريين وتونـــسي وأنـــا وعلي إضافة إلى سعوديين ويمني وســـوداني .. خلـــيط مـــن فسيفساء الأمة .. شظايا بشرية من جغـــرافية الوطن الكبير المتناثرة وحّدها الإيمان .. بعض ممن أصغوا فلبوا .

عشرة سيدتي لا غير أحسّوا من أمة تتربع قارتين دون اســـتحياء عـــشرة من فرط صدقهم أدلوا ببيانات كاذبة لمكتب

الجــوازات وحــرس الحــدود مقرين بأنهم متوجهين للسياحة بمروج الدمار !! .

نفرٌ بسيط أملوا أن يعثروا بخرائب العراق وأطلال بناياته على فندق دون نجوم !! .. كل مدن العالم الراقية تتباهى (بالفايــف ســتار) إلا عــراق الاستحقاق الذي تجاوز الرقم بحجرة ما عادت تملك سقف .. بخندق !! .

كان سائق الحافلة ساعتها يُلقم مسجلها شريط للسيدة التي قالــت: (راجعــين بقــوة السلاح .. راجعين نحرر الحمى .. راجعــين كما رجع الصباح .. من بعد ليلة مظلمة) .. رددناها جماعــة بصوت موحد كصلاة كنشيد وحد النطق فينا بعد فشل كل المشروعات التي لم تصمد .. كنا نمر بين الفينة والأخرى بــبوابات الدرك والتي فشلتُ في تبيان عددها من كثرتها الأمر الذي أنطق خالد وهو أحد السعوديين الثلاثة فما كان منه إلا أن وصفها مُتهكماً بأنها نعمة مستنداً لقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ كلما مررنا بإحداها كان خالد السعودي يستعين بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ كان بعد كل محنة نجتازها بنجاح يكبر بشكل مُستفز ما حدا بالمنصف وهو التونسي الوحيد بأن يرجع أسباب

مـــرورنا بـــسلام إلى وطنية رجال حرس الحدود قائلاً: أنه لا داعي لتوظيف النصوص الدينية وتوريطها بأمور لا علاقة لها بالموقـــف مـــا أدى بالنقاش إلى أن يحتد بين سلفي يقوده إيمانه وعلماني يرجع الأسباب لعواملها الأولية، الغريب في الأمر أن وجهتهم كانت واحدة .

بعـــد أن أخرج السائق الشريط أدار مؤشر جهاز الراديو بنية التقاط إحدى المحطات العربية لمتابعة أخبار اللحظة فتوقف أمام المحطة التي عرف لنا المذيع أننا نقف عندها بقوله .. هنا بغـــداد .. جاءنا الآن البيان الآتي: تمكنت وسائط دفاعنا الجوي الباســـلة من إسقاط ثلاث طائرات سمتيه للعدو بالقاطع الأوسط هـــذا وقـــد تـــم أسر طياريها وسوف يدلي السيد وزير الإعلام بتقرير مفصل عن العملية بعد هذا (المرش) العسكري .

نفـــد (المرش) فأعقبوه بأغنية حماسية كيلا نبرد وينفد صبرنا .. حضر صوت السيد الوزير فوجه كلامه إلى النشامى والماجدات من أبناء العراق الغيارى قائلاً: إن بغداد عصية على الأنذال وأن أسود بابل من أبناء العراق الأشاوس سوف .. مفيداً بـــأن جـــيش القـــدس لم يدخل المعركة بعد مُسترسِلاً بأن فرق الحـــرس الجمهوري على أهبة الاستعداد مبيناً أن قائد فرقة

(حمو رابي) قد أقسم له شخصيا بالطلاق بأن الأخبار القادمة ستثلج صدر صاحب / الركن المهيب / ثم تنهد وزمجر وأزبد وأرعد محذراً من مغبة الإنصات لإذاعات العدو خاتماً وعيده بالويل والثبور وعظائم الأمور التي تنتظر العلوج أبناء ال .. انتهى البيان .

أبى أبناء جميع القرى السورية التي كنا نمر بها أو نستريح عندها للتزود بالوقود أن يتركوننا نشتري الطعام من المحال والمطاعم بالطريق بل أصروا ألا يتقاضوا منا أثمان ما ابتعناه منهم حتى أن بعضهم أرجع لنا النقود وهو يعتذر بعد أن أتضح له مقصدنا .. آخرون تمسكوا بنا مقسمين بأغلظ الأيمان على استضافتنا بدورهم .. كم كانوا أغنياء جوار فقرهم المدقع فهم لم يُبالوا رغم علمهم بعواقب وتكلفة الموقف، كما لم تفارقنا عبارة: الله أيحييكم .. الله أيقويكم يا شباب .. لم تفارق آذاننا تلك العبارات المؤازرة فكانت زادنا طيلة الرحلة بل وقود عزمنا حتى الحدود .

بناءً على ملحوظة الحاجة مبروكة لما آل إليه حال ابنتها لم يجد والحالة هذه السيد محمود بُدّاً من استدعاء الطبيب لابنته كونها أضربت عن الطعام رغم إلحاح أمها عليها .. كانوا

يظـــنون فـــي بدايـــة الأمر أنها تمارس نوعاً من الرجيم الحاد لتخـــسيس وزنهـــا إلا أن ما عجل باستدعاء الطبيب هو علمهم بإضرابها عن الكلام أيضاً فكم حاولت الحاجة مراراً استنطاقها لمعـــرفة مـــا ألمَّ بها أو مما تشكو، فلم تفز منها إلاّ بمزيد من الـــسكون والاســـتغراق كـــان من جملة ما قالته السيدة مبروكة لزوجها وهي تعترف له:

- البنت أُصيبت بالعين يا محمود .. لقد أحضرت لها أحد الشيوخ قبل أن أبلغك بالأمر .. لم أشأ إزعاجك عددت الموضوع عادياً بادئ الأمر حينما فشل الشيخ استبدلته بآخـــر ذائع صيت فرقّاها مُعزماً فوق رأسها إلا أنه لم يطرأ عليها أي تحسن .. أخاف أن تضيع مني البنت يا محمود؟

- كان عليكِ أن تخبريني من أول الأمر .

- ليس هذا وقت العتاب .

لحظـــة كـــان فيها الطبيب يقوم بالكشف عليها كانت الأم تقرأ بصوت خافت سورة الفلق وكل ما يعنيها منها قوله تعالى ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ سورة الفلق آية (5).

رفــض سائق الحافلة التي أقلتنا أن يتقاضى منا أجرته معيدا لعبد الرحمن السعودي ريالاته فظن الأخير بالسائق سوءً لحظـــة همـــس فـــيها للقحطاني بأن من العيب عليه استغلال الموقـــف فـــتدخل خالد موضحاً الأمر بأن السائق حين رفض قـــبول أجرته كان محقاً في ذلك وأنه لن يقبل إلا أن يشاركهم ثـــواب أجـــرهم بموقـــف ثم توجه للآخرين بقوله: من منكم يستطيع أن يقبضه ذلك؟

بعـــد أن تـــرجلوا ودعهـــم بحرارة الضم .. كانت يده ســـاعتها تـــربت علـــى هاماتهم بمعنى أنهم رجال وانه يمكن الاتكال عليهم، قبل أن يغادر عرفهم على الدليل الذي سيتولى أمرهم من الآن فصاعداً .

بعـــد مـــسير دام سبع ساعات وصلوا لمعسكر الأنصار حـــيث تـــم اســـتبدال أسمائهم بأخرى لزوم تضليل العملاء ثم مـــنحوا راحة لمدة يومين ريثما يبدأ تدريبهم على فنون القتال وقد أوكل أمرهم لأحد الجنود المتمرسين من قبل آمر المعسكر والـــذي كـــان ملازماً بالجيش العراقي المنحل للإشراف على تدبيـــر شـــؤونهم والعمل على إعدادهم ريثما تأتيه التعليمات الأمر الذي لم يتأخر طويلاً فقد صدرت أوامره القاضية بجمع

كل من بالمعسكر وأرتجل فيهم كلمة بمناسبة التحاقهم ووصولهم بسلامة جاء فيها:

لم يعقم رحمها بعد هذه الأمة الولاّدة .. اليوم أنجبت عشرة رجال اسألوهم سيخبرونكم بأنهم لحظة تقبيلهم تراب أوطانهم قالوا عنها إنها حبلى تتمخض بالمزيد من الرجال واستطرد قائلاً: لقد تركوا ذويهم وأحباءهم تركوا أبناءهم خلفهم متخلين عن وثير الفرش إكراماً لتراب العراق ألا يُداس .. هؤلاء النفر البسيط الذين ترونهم عظمتهم أنهم أبوا إلاّ أن يكونوا عنواناً .

كان قد مضى على وصولنا حتى الآن شهران بالتمام .. الأكل الذي كنا نتناوله من التواضع لحد لا يمكن التحدث عنه .. إلاّ أنه لم يفتنا ملاحظة أن الوجبة التي كانت تقدم للمناضلين العرب أفضل من تلك التي يتناولها العراقي ابن البلد والذي كان مكتفياً بواحدة بالكاد تقلل من تضوره جوعاً فتبقيه حياً، وقد نقلنا ملاحظتنا تلك للمسؤول عنا كي يرفعها لرئيسه بأننا لم نتجشم كل تلك المشاق من أجل لقمة طالبين إبلاغه أن الصيام موقف نضالي أيضاً وإننا وإن كنا نتضور جوعاً لملاقاة المحتل .. أنقل لآمرك قولنا ونحن بانتظار رده .

عرف السيد محمود وزوجته حقيقة الأمر بعد عدة جلسات تماثلت على إثرها مريم للشفاء فقد أبلغهما المعالج النفسي عن الأسباب التي أدت بتلك الزهرة للذبول قائلا :

بالماء وحده لا يمكن الإنبات .. لا سقاية ولا غمر يمد عوداً أو ينجب ورقة خضراء .. أتعلم يا سيد محمود الذي أعنيه؟ ثمة شخص تعرفونه تقدم لكم طالباً يدها فسرق قلبها لتصدق عبارة (من الحب ما قتل) لا أخفيك سراً فقد اعترفت لي بأنه سافر للعراق .. تخاف موته ترى مصرعه كل ليلة، صرفت لها بعض الأقراص المهدئة آملاً حرصكم بألاّ تمكنوها من مشاهدة أو سماع أخبار الحرب هناك .. جنبوها كل ما هو مثير لا داعي للقلق الحالة بسيطة اطمئنوا سترجع كما كانت .. الأمر يحتاج لقليل من الوقت والصبر ليس إلا .

أبلغنا الفرد الموكل بنا بإمكان كتابة رسائل إلى ذوينا غير أنه اشترط علينا ولدواعي السرية بضرورة ألا نشير للمدينة التي نحن بها أو أية معلومات أخرى قد يستفيد منها العدو طالباً بنهاية الأمر منا عدم إغلاق مكاتيبنا لزوم التحقق من ذلك ولم ينس فزودنا بعنوان تمويهي بمسمى 7 شارع مروان/ مقهى النوارس/ دمشق / سوريا .

أغلبنا لم ينم ليلتها فقد طُلب منا كتابة رسائل للأهل بسرعة فأنكب الأخوة السعوديون على كتابة رسائلهم والتي كانت أقرب إلى المواعظ أو خطب الجمعة لبعض إخوانهم يحثونهم على الالتحاق بهم، المنصف عندما سألته عن فحوى رسالته قال أنه أوصى أخاه فيها بضرورة جني محصول الزيتون ونقله للمعصرة على أن يحتفظ له بنصيبه مشهداً الله عليه بأنه الرقيب .. أما اليمني فقد أوصى زوجته برعاية أبيه ذاك الشيخ الكسيح .. ابن النيل: آدم السوداني كان كل همه أن ترعى زوجته جاموسته وتبحث لها عن فحل جيد من عند الجيران يقضي معها سويعات علّها منه ترزق، لم يفته أن يطلب منها إبلاغ أشقائه بعدم الانضمام لأي طرف بالقتال الدائر رحاه جنوبا فأهل (جوبا) سودانيون أيضاً على حد قوله وهو يوجه كلامه إلى أخوته مخاطباً إياهم أنه من العيب على (الزول) أن يرفع سلاحه بوجه أخيه مهما كانت الأسباب، آدم ولكونه لا يجيد الكتابة فقد كانت رسالته مفضوحة للجميع عندما استعان بفيصل السعودي فأملى نصوصها عليه جهراً على رؤوس الأشهاد ما حدا بالمجموعة أن تضحك دون انقطاع باللحظة التي كان يملي فيها طلبه إلى زهرة حاثاً إياها أن تبحث عن فحل جيد فأستغل المنصف الموقف ليسخر منه قائلاً: ألا ينفع الثور يا

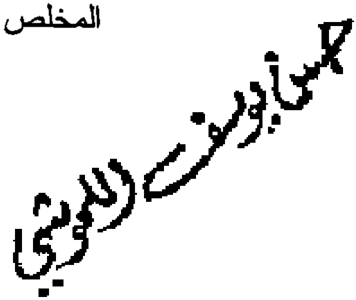
آدم؟. أما علي فقد أصر على استكمال فريته والتمادي فيها حتى الـــنهاية فكتب لأمه بأنه قد قُبل بجامعة دمشق وان دراسته بها على ما يرام ولم يفته أن يعلمها أن الامتحانات على الأبواب !!.

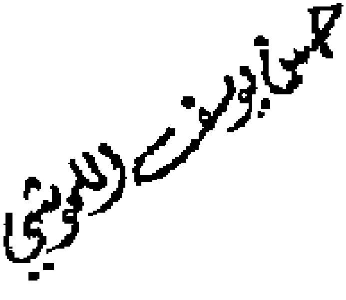
أمـــضيت جُـــل ليلتي في تحليل نظرية التناسب العكسي ســـرحت فيها مجتراً رغباتهم البسيطة المترفعة عن سقط متاعٍ غرقَ فيه الجميع، ولأنهم كبار فقد أتت أمانيهم صغيرة لحد أن لا تُرى من فرط تواضعها !! فطموحاتهم لم تتعد جني محصول شـــجرة مباركة أو طلب رعاية لمسن قعيد .. لم تتجاوز مرعى جيد لجاموسة ووصية لأخوة بعدم الاقتتال شدني أنهم لم يقتنوا هواتـــف محمـــولة للاتـــصال بـــ (سوبر عار) خفق النطق بقلـــوبهم أغـــناهم عمـــا ينأى بهم بعيداً .. لم تغيبهم صرعات الأزياء عن الحضور .. لم تشدهم الموديلات المتعددة للسيارات الفارهـــة للـــوراء .. لم تسترعِ انتباههم الدور المشادة باستكبار وتعالٍ .. تجاوزوا كل الشطحات فلم يعد يعنيهم من يأخذ الكأس بالدوري الإيطالي .. لم تعد تلفت انتباههم ملاعب كرة القدم إن كانت معشبة صناعياً أو طبيعياً مقابل حفرة ترابية بالعراق وبين أن يـــنالوها .. ولا، آدم السوداني هو من ذكرني بمريم عندما تطرق لزهرة فكتبت لها قائلاً :

تلميذتـــي الصغيرة أنا بخير فكيف أنتِ .. مفعمة رسالتي هـــذه المرة برائحة البارود .. مُغبرة بذرات تراب ذرته الريح عن بناية انهالت منذ برهة بفعل قذيفة عمياء صوبها بقصدٍ عدو مبصر .. من تحت ركامها الذي دكه كتبتها مُنتزعاً من الدمار فسحة زمنٍ وجيز .. غنيٌّ بالرجال العراق غنى الصحراء رمالاً .. هــل تعلمي أن هِمم العراقيين اتقدت بمجيئنا .. قدومنا أشعل فيها .. البعض يزعم أننا إرهابيون خَلت قلوبهم من الرحمة .. أ تحــق العــبارة فعلا على آدم الذي أوصى على دابته خيرا؟ أ تصدق على من ذكّر شقيقه بجني ثمار الشجرة المباركة؟ وآخر أوصـــاها خيراً بمسنٍ قعيد أنهكته السنون والعلل .. حبيبتي ما أتينا إلا لنصرة جريح يتأوه .. لعتق وطن مُسبى .. جئنا لمرقد مــن علم الناس الحرف فقدم لهم أبجدية سمت بهم عن الأنعام والمراتع الوضيعة المراتب جئنا لنذود عن مرقد المعلم الأول ألا يُنبش .. لنبحث عن شطر قصيدة ضاع منّاً .. جئنا نستنطق من صدى المكان عما قاله الجواهري ذات إلقاء قَدِمنا نتعلم من بختنصر سر انتصاره .. صورة لإحداهن بعمر الزهور مبتورة الساق مفقوءة العين شاهدتها بالتلفاز عقب غارة هي من جاءت بـــي رأيتها ظننتكِ .. لمحتها حسبتكِ .. كونها في مثل ربيعكِ كانـــت .. لا تلوميني لأن حبكِ بمقدار عشقي لبغداد فلا تجعلي

الغيرة تعميكِ عن الصواب فتصورها لكِ أخرى .. سلامي للسيد محمود وللفاضلة مبروكة لكافة الأهل وذرات التراب .. صرِّي على لقائي بحد متواضع لأمنية تناليني حلماً .

المخلص ..





العـراق

طلب إلينا المسئول عن المقاومة بأن ننام جيداً لأنه سيتم باكـــراً اختـــيار ثلاثة منا للقيام بعملية ضرب هدف للعدو قد تم تعييـــنه مـــنذ مدة ومضى قائلاً بأنه في حيرة من أمره كونه لم يعثـــر علـــى أيـــة فوارق بيننا استناداً لإطلاعه على سجلات الـــتدريب الـــذي أُخضِعنا له الأمر الذي دعاه أن يجري علينا قـــرعة بعـــد أن أعنـــته رغبة الجميع بإصرارهم على نيل هذا الـــشرف .. فها هو آدم السوداني يستجديه أن يسجل اسمه بينما أقسم عليه الجزائريان خالد والشاذلي بسيدي (عبد القادر) أن يكـــونا على رأس القائمة الأمر الذي حدا بالمنصف أن يعترض بحـــدة قائلاً: بأن شرف الدفاع لابد أن يطال الجميع وأنه يكفي الجزائريين فخراً ما سطروه من تاريخ مشرف بالأوراس خاتماً كلامه بأن بغداد قضية تخص الأمة بأكملها .

كيف لي أن أنقل إليك مشاعر فتيةٍ طرحوا أعناقهم تحت مقـــصلة الـــواجب مبتسمين سعداء .. بل ماذا أقول بحقهم وهم يقرضون أمتهم غالي الأثمان بزمنٍ غدا فيه البخل صفة حميدة والجحود والنكران مكرمة أغلب القوم .

شباب بضاعتهم أعمارهم الغضة طوعاً وهبوها كي ينالوا

عـــبارة شـــهيد ليس إلا .. نبأ بموجز قصير للأخبار بمذياع أو تلفـــاز أو ســـطر صغير بصفحة ممزقة من صحيفة ملقى بها أرضـــاً ثانـــي يوم صدورها أسفل جدار لقصر مرمري يخص أحـــدهم مُثبت بها أسم أو اسمين حسب إملاء الموت ومزاجية اختياره للأبطال .

مـــات آدم يا زهرة .. فمن يرعى ابنكِ وصغير دابتكِ .. استـــشهد صحبته فيصل المكنى بالحجازي أثر قذيفة مدفع دبابة كـــي تحـــسم المسألة التي كلفتهم أربعة قتلى وتدمير سيارة نقل عسكرية بكامل ذخيرتها ونجح ثالثهم وهو الجزائري الذي رجع بالخبر بعد أن تحايل على الردى عاقداً صفقة مع المنية بتأجيل موته لموعدٍ لاحق .. فالجزائري ابن الموت فقد شب وترعرع بحضنه هناك .

بالعـــالم الآخر عادة ما تصل الرسالة بعد يومين أو ثلاثة مـــن كتابـــتها ولكونـــنا فشلنا فشلاً ذريعاً في جميع مشروعاتنا الـــوحدوية فلم تصل رسالتي إليها إلا بعد ثلاثة وعشرين يوماً وكأنها معنونة من المريخ لزحل !! عدت أرجع أسباب تأخرها وبالتالـــي تأخرنا للاستعمار ذلك المشجب الذي لم يتملل أو يكل مـــن كثـــرة مـــا علقـــنا فوقه، عندما طرحت فكرتي هذه على

المنصف فأولها للختان الذي أجري علينا باعتبار أنهم لا يدرون عاقـــبة الأمر وهم يقومون بها .. أنظر للغرب المتقدم عنا قالها متـــنهداً .. أنزع عنهم بناطيلهم تعرف السبب .. لم يخلق شيء سُـــدا .. حتى الزائدة الدودية التي يزيلونها لم تكن زائدة .. ثمة حكمة تنفي عن التكوين والخلق العبثية .

تلقيت ردها والذي جاء فيه:

أستاذي العزيز .. مسيح عشقي .. غيابك آلمني كثيراً .. أفتقدك كل لحظة .. كن حذراً حبيبي تقول وسائل الإعلام إن (البـــشمرقة) أجّـــروا أنفـــسهم للـــتحالف وان أسعار رؤوس المقاومـــين العرب بلغت أثمان أعلى من سواها فقد وصلت في بعـــض الأحيان عشرة آلاف دولار فكم يساوي الدينار العراقي بمواجهة بنس واحد بجيب عميل؟

حبيبي أوعكني غيابك كثيراً .. زارني الطبيب مرتين دون جـــدوى وصفتك أعني مكتوبك كان أقدر على جلب الشفاء مما أشار به هو عليَّ .. رسالتكَ أعني من هبلي وإيماني بكَ صرت أقـــرأها كل ليلة قبل النوم كجرعة دواء .. صرت أرقّي نفسي بها كآية من كتاب العشق المقدس ألتمس سكينتي ببركتها .. أنت

لا تعلــم مـــا الفراق بالنسبة لامرأة أدمنت رجل .. شدني بيت لأحدهم قال فيه :

لــو كــان قــبل المــوت يــوم قــيامة

كـــان الفـــراق قـــيامة العـــشاق

عـــشتها الحالة أقسم لكَ .. يوم تكبدت فداحة خسارتكَ .. عد سريعاً ومظفراً كي أصنع من فخاري لكَ غاراً .. أعرف أن صبري قصير جداً يكاد ينفد بمواجهة حرب طويلة فكيف يستقيم الـــسطر والعـــبارة تعاني الاضطراب، أتدري أنني نجحت في مقاومـــة أرقـــي بقصاصاتكَ التي أودعتها عندي فأخرجها من حقيبتك عندما تنتابني الهواجس كعقارٍ أو ترياق .

الكـــل يُـــسلّم علـــيك .. الحاجة مبروكة تدعو لك بصلاة الفجـــر أن يسلمك الله من كل مكروه وأذى .. والدي يفاخر بك أقـــرانه في مجالسه وقد لاحظنا ذلك من خلال مجيئه ورواحه كـــونه غيّر من مشيته المعتادة .. غدا يخطو بعزة وشموخ ليس كِبـــرا أو تعالـــياً فهو إنسان عادي وبسيط كما عهدته الجيران وأهـــل الحي أرجعوا ذلك التغير المفاجئ الذي طرأ عليه لسبب أن له صهرا بالعراق .. كم أنا فخورة بكَ .

حبيبـــي الـــصحيفة التي تراسلها نشرت لك مادتين الأمر الـــذي أثـــار زوبعة بالوسط ما دعا محررها المسؤول أن يأتي لمنـــزلنا ظناً منه أنه عنوانك حين فتحت له الباب وقابلته عرف منـــي أنـــك بالعـــراق تكتب بالقاني صفحات مجد لا علاقة لها بالحبـــر الأســـود فلم يجد حرجاً في أن يسألني أن أطلب إليك مداومـــة الكتابة للصحيفة من حيث أنت مُقترحاً علي أن أكون وسيطة بينكَ وبينهم .. قبِلتُ عرضه تحت إلحاح قراء الصحيفة بعـــد أن زودنـــي بعشرات الخطابات الموجه إليكَ عن طريقه يسألونك المزيد مشيدين بصدق عباراتك .

شـــدتني رسالة من إحداهن فقادتني غيرة الأنثى الجامحة لأبحث بين أسطرها عمَّ فَطِنت له وغاب عني .. غيرة تلبستني وأنـــا أقـــرأ مـــا كتبته لك أخرى .. قرأتها .. كانت بالمصادفة مرســـلة من إمراة لمسؤول كبير لم تشِ باسمها صراحة مخافة أن يعلـــم زوجها بأمرها .. لِمَ لا وهي تعرف أن له عسس بكل مكان فاختبأت وراء حرفين رامزة بكونها م . ن وأنها:

بعـــد ثنائها على قلمك النظيف مُكبرة فيك إيمانك الراسخ بهـــم البائـــسين والمشردين إضافة إلى لمستك الإنسانية لجراح البـــسطاء منهم وتبنيك لهموم عموم الناس ورد عنها أن زوجها

والــذي وصفته بمقالك أنه صفوي، يظن جازماً أنك تعنيه وأنها علمــت مــنه وهــو على فراشها بالمكان الذي لا يستطيع فيه المقاومـــة مـــنه بعض خبايا مهنته وأسرارها مميطاً اللثام عن بعــضها فــبان قبحها بليلة ابتدأ فيها بسرد بعض ما استجد من أوامــر صـــدرت إليه فأستهل بشرح التفاصيل الدقيقة لوظيفته السرية مُستعرِضاً أمامها قدراته الخارقة في الزج والتنكيل بمن أوقعه سوء حظه بين يديه .

فهو بطل في كل رواية .. والمنتصر دوماً بجميع فصولها .. هــي تعرف أن سبب سرده لم يكن بدافع طرد السأم وإلا لما روى لهــا ما تقشعر له الأبدان وترتعد له الفرائص .. لو أراد لــروى لها أشياء شيقة وبما أنه يعاني قصوراً في أدائه كرجل فلابــد لـــه من منفذ تعويضي يكمل به فحولته متيحاً لنفسه من خلاله مهرباً فلا يتركها إلا بعد أن يصرعها النوم بعد أن يكون قد هدها الإعياء .

قالـــت أنـــه كان يبدو ساعتها كمن يزيل عن كاهله ثقلاً فــضيعاً يــود التخلص منه .. هو من حدثها أنه يدبر لك أمراً بمـــساعدة بعــض من أعوانه الذين دسهم بالمطار لأنه يود أن يــرحب بــك علـــى طريقته الخاصة .. قالت أيضا أنه ينتمي

للداخلـــية وأنه صاحب رتبة رفيعة .. أضافت وهي تصفه بدقة بأنه ضابط شرف .. لم يدخل المدرسة بعد !! .

شاويش مكتبه هو من قرأ عليه نصك بالصحيفة مؤولاً إيـــاه بحـــسه الأمنـــي أنـــك تقصده قائلاً له: أن الموضوع المنـــشور بالـــصحيفة ينقـــصه اسمك الثلاثي ورقم بطاقتك الشخصية .. سيدي .

حبيبـــي .. المسكينة وحسبما جاء برسالتها كم حاولت أن تحد من حنقه بأن المقصود مفسد آخر وما أكثرهم .. بل زعمت لـــه وهي التي تعرفه جيداً قائلةً: وبما أنك شريف فإن الأمر لا يعنـــيك في شيء .. الغريب في الأمر أنه أجابها بأن الكلب ابن ال .. استحت أن تورد اللفظ صراحة بأنك تصفه بدقة كأنك تعلم كـــل خروقاته .. هي ترجوك أن تكون حذراً عند عودتك وان تستمر في الكتابة ولا تتوقف .

بقدر ما يهمني إبلاغك بأخذ الحيطة لنفسك وتعاطفي معها إلاَّ أن الأمـــر لـــم يستقم عندي فعدت أعلل الأسباب التي دفعت بـــتلك الفاضـــلة لتحذيرك منه فقلت بالتأكيد أنها زُفت له عنوة تحـــت أسباب منها ماله .. سلطته العرف القبلي مثلاً فقد يكون ابـــن عمهـــا .. طمع أسرتها المتواضعة للترفع بمصاهرته قد

يكـــون ســـبباً أيــضاً .. عدت وقلت لِمَ لا .. فقد تكون كل تلك الأسباب مجتمعة هي التي أدت إلى اقترانها به .

رجعـــت لرسالتها ممسكة بطرف الخيط .. قرأتها مرتين بعد أن ألغيت كل الاحتمالات السابقة أخضعت مفرداتها للتمعن واضـــعة كلماتهـــا تحت المجهر علني أوفق في معرفة نوعية فيروس الصدق الذي أصابها في بيتِ ربه كاذب ومداهن بامتياز .. متسائلة أن كيف لخصال حميدة أن تنبت بتربة غير صالحة فتـــسقى بذورها الطيبة بآسن الماء .. تينع وتزهر .. هاهي من قهـــرها تطـــرح ثمراً ومكارم خصال .. من فضولي وجدتني أســـتعين بمـــا توصل له العلم الحديث مستغلة أحدث النظريات الطبية في تحليلي عمّا دعاها لذلك وإن كان له ثمة علاقة بآخر مـــا توصـــل له علم (الجينات) الوراثية فخلصت بأن عنصراً طيباً يسري فيها .. قد تكون حملته وراثة عن جدها أو جدتها .. لـــن أتركها لحالها فقد أصبح أمرها يعنيني لأن السؤال لا زال ماثلاً أمامي ينتظر بإلحاح جواب .

كـــان علـــي أن أفطن لقولها بأنه ضابط شرف لم يدخل المدرســـة بعد .. كان المفروض أن أنتبه لكون الموضوع قُرئ علـــيه بمعـــرفة شاويش مكتبه .. كان الأحرى بي أن أتبين أن

سبب بلاغة مفردها وانتقائها لعبارات بعينها لم يكن عفوياً تلك الجمل التي استعملتها كان لها عظيم الوقع على نفسي بما تركته بها من أثر شجي كأنها تشكوه لي رافعة مظلمتها بحبر منتحب طي صفحة من كراس إملاء يخص صغيرها .

أتدري يا عزيزي أننا حين نبوح بأحزاننا وما نكابده لمن نثق بهم إنما نشركهم في حمل بعضها عنا فنتنفس الصعداء .

تلك السيدة الفاضلة أتراها حينما كتبت ما كتبت وثَقت بكَ وهـــي التـــي لم تعرفكَ إلا من خلال بعض كتاباتك أم برئيس التحريـــر الـــذي تجرأ ونشر لك أم أنها آثرتني فاختصتني بها لعلمهـــا بأنـــي امرأة وأن النساء أقدر من الرجال على مواساة بعـــضهن .. بعد عناء وجهد مضنٍ في تحليل شخصية صاحبة الرســـالة اكتـــشفت أنهـــا على مقدار من الثقافة وأن زوجها لا يتعدى كونه ضابط شرف يعوزه الكثير منه وأن هناك ثمة تباين فكـــري بيـــنهما فأتضح لي أن مكون الثقافة قد نعثر عليه عند تحليلـــنا لعنصر ال DNA كون هذا العنصر غير مقتصر على حالـــة البـــشر العـــضوية فقـــط أي أنه بإمكاننا إخضاع ثقافتنا وصحتنا النفسية لقياسه المذهل.

المخلصة ..

حبيبتي كيف أنتِ والأهل كم أسعدني وصول خطابكِ كم فـــرِحتَ بتماثلكِ للشفاء أبلغي الجميع أنني بخير وخاصة محرر الصحيفة المسؤول وإن سنحت لكِ الظروف وتمكنتي من معرفة صـــاحبة الرسالة أبلغيها شكري وعرفاني .. الأحداث تتسارع هنا .. لا محل إقامة ثابت لنا فنحن نغير مبيتنا باستمرار مخافة الوشـــاية الأمور ليست كالسابق نعاني عسرة مؤقتة في المواد التموينية .

حبيبتي العراق يتشرذم فقد أنقسم الأكراد على أنفسهم بين مـــؤيد لجلال الطالباني ومناصر لمسعود البرزاني لتنتقل عدواه بـــين طائفتـــي السنة والشيعة فينادى في أربيل بضرورة طرد العـــرب والتـــركمان مـــنها ما دعا الشريحتين للتوحد بمواجهة التطهير العرقي منعا لتكرار مأساة صربيا الكبرى بإخراجها من جديد بالعراق .

حبيبتي لم تكتفِ نبوءة العراف بهذا القدر من الفداحة فإذا برأس الحية يطل من الحدود التركية فتكشر عن أنيابها بحجة أن واجـــبها تجـــاه مواطنيها التركمان يحتم عليها حمايتهم وقطعة الأرض التـــي يتـــبولون فـــوقها بذريعة بناء مسجد !! فهددوا باقـــتطاعها من الوطن الأم وضمها إذا لزم الأمر .. لم يسكت

الأمريكيون فتدخلوا بالأمر ووعدوا تركيا بأنهم سيغضون النظر عــن مطامعهــا بجزيرة قبرص إن أذعنت للأمر ولم تفت هذه الــسانحة الاتحاد الأوربي فضغط هو أيضا بهذا الاتجاه مرحباً على استحياء بالعضو الجديد الملتحي !! .

القدر أيضاً لم يتوان في الاستمرار بلعبته في السخرية من العــراقيين فجفــف دجلة وأنضب الفرات ليتيبس لسان العراقيين بحلقهــم فمــا كــان مــن جــار الديرة وهو الذي لا يملك الماء للاستنجاء إلا أن يتبرع بعشرة آلاف قنينة ماء وهو يعلم أن عدد سكان العراق أربعة وعشرون مليون ضاميءٍ !! غير أن المهزلة لم تتوقف عند هذا الحد فتجاوزته باقتطاع الكويتيين مقابل سخائهم هذا وجودهم جزءاً من رغيف خبز لأيتام مستغلين ظرف غياب رب العائلة وعطش بنيه متناسين الدور المشرف للجندي العراقي في الدفاع عن الإمارة وأميرها المتكئ على الأرائك بخدره الأمر الذي أدى بمملكتهم أن تتضاعف مساحتها وحجمها ما أضطرهم لتدبير جيش غير وطني وحرس حدود بعقود مغتربة !! .

فر بعنقه من فرّ وهربت بغشائها من هربت مخافة السبي والانــتهاك فاستغل بقذارة أصحاب فنادق الدرجة العاشرة لجوء الماجــدات فقــسمت الحرائــر على كل النزلاء المصابين بداء

الزهري من بني قحطان وتعبان ابن جبان ونسيان حفيد خرفان والإمــــام خمران وجهلان ابن عم هذيان فتناثرن كأشلاء نيزك هـــوى من أعلى .. أما العراقيون فالسعيد منهم من حالفه الحظ فاســـتقرت شـــظيته بـــبلاد الضباب بعيدا عن مضارب القبيلة ليصدق قول الشاعر :

وظلـــــم ذوي القربـــــى أشـــــد مضـــــاضة

علـــى الـــنفس مـــن وقـــع الحـــسام المهـــند

بعـــد أن انتهيت من كتابتها عنونتها لمريم مقترحا عليها إرســـالها لجريدة القدس اللندنية لثقتي بشخص السيد عبد الباري عطوان وإن تعذر ذلك فلتحيلها إلى مجلة المؤتمر بطرابلس ليبيا والتنبيه على الأخوة بتبنيها مع الشكر .

حوصرت الفالوجة بشكل خانق .. غير أنها لم تستسلم .. أمهلوا من فيها مدة قصيرة لتسليم أنفسهم وأسلحتهم دون جدوى.

دُكـــت المديـــنة جوا وبالمدفعية من ذات العيار الثقيل .. مَنعت قوات التحالف المراسلين ووكالات الأنباء من نقل أخبار المجزرة .. منعوا أيضا منظمة الصليب الأحمر من دخولها فقد قيل أن من بقي من المجموعة قد قضى بها .

قيل أن بعضهم قد سِيقَ للأسر .

قال شاهد عيان أنه عَثر على أشلاء ببركة قانية مضرج بهـــا خمسة أرجل و فخدين وثلاثة أذرع وأربعة رؤوس، أغلب الظـــن أنها لأربعة أو خمسة رجال .. آخر يقول نقلاً عن ابن عمه الخارج للتو من (أبو غريب) أنه التقى اثنين منهم .

زعم غيره بأنهم سُفِّروا من مطار بغداد ويظن أن وجهتهم (قوانتنامو) .

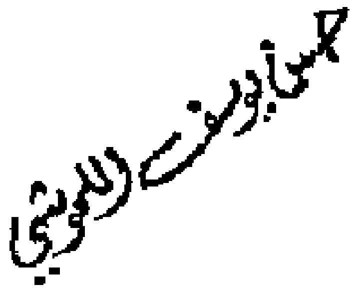
هـــي بانقطاع رسائله في حيرة بين ثوبين ولونين .. بين نعـــي وبـــشارة هي من تتنازعها الزغردة والعويل .. بين هذه وتلك المتناقضات منتظرة تقطن نفسها المعذبة .

فتحي العبدلي

بنغازي في 2006/02/04

كن طاهياً ماهراً

لأن عملية الكتابة طبخ هي الأخرى وعليه فقد جهزت الحلة أولا بعد أن ابتعت من سوق الحياة لوازم إعدادها .. أضفت من الخيال ملعقتين وقمت بالتحريك جيدا .. وضعت الخلطة فوق نار هادئة لمدة كافية .. رفعت غطاءها عدة مرات للتأكد من نضجها .. بعد أن استوت قال عنها أحدهم أنها نيئة .. غيره أفاد بعدم استساغته لها .. سواهما زعم بأنها ينقصها ملح .. الأخر قال أنها مالحة .. لم يثن عليها إلا جائع كان يمر مصادفة قائلاً عنها إنها مليحة .. من لم أراهن عليه أكسبني .



الـفـهــــرس

تنفيذ الطباعة والتجهيزات الطباعية

دار قـــباء الحديثـــة

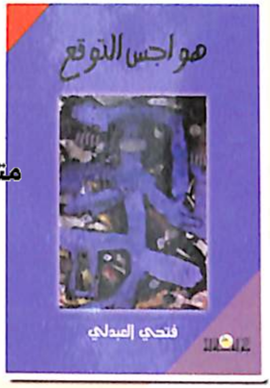
للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة

جمهورية مصر العربية

16 عمارات العبور – شارع صلاح سالم – مدينة نصر

تليفاكس 02/22621365 - محمــول 0123140315

E-mail: modern_qubaa@hotmail.com



■ يقدّم مجلس الثقافة العام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة ، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً ، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام